الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٦ — ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ — ١٥ يوليه سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٦٢٦	الفصل الأخير من المأساة ...	على أبواب المدينة	بقلم الأستاذ على الطنطاوى .. ...
٦٢٩	كان لصاً	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..
٦٣١	عجوز الصور المتحركة	للكاتب الأسبانى بلاسكوابانيز ..	بقلم الأديب محمد محمود دوارة . ...
٦٤٩	جارسون . . . واحد شوب!	للكاتب كارديك لاهوفسكى	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة ... ...
٦٦٠	عواد كريمون	للشاعر الفرنسى فرنسوا كوبيه ...	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
٦٦٥	حاجى بابا فى انكلترا	تاليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...

من التاريخ الإسلامي

الفصل الأخير من المأساة

على أبواب المدينة

للأستاذ علي الطنطاوي

زينب — كفى يا فاطمة . كفى يا حبيبتى، لقد بلغنا مشارف المدينة

فاطمة — وما ذا أصنع فى هذه المدينة ؟ أألقى فيها أخى ؟ أألقي الفتية الكرام من آل النبي ؟ لقد ذهبوا يا زينب ، لقد ذهبوا إلى الأبد ...

سمية أمسى نسلها عدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل[1]

زينب — إنا لله وإنا إليه راجعون !

فاطمة — ما ذا أجد فى المدينة ؟ يا مدينة الرسول ! هؤلاء بنات الرسول يتامى ثاكلات أسيرات ذليلات كأنهن سبايا الروم ... يا مدينة الرسول ...

زينب — فاطمة، أشفق على الصغار، لقد نفدت دموعهن ...

فاطمة — ولن يدخرن الدموع بعد حسين ؟ إبكين إبكين ... لقد قتل الحسين !

زينب — فاطمة ، أهكذا تدخلين المدينة يا فاطمة ! كفى يا أختاه كفى

فاطمة — لقد كانت مدينتى يا زينب يوم كان فيها أهلى ، فما لى اليوم فيها من أهل . إن مدينتى هناك ، فى القفرة التى غصت أحشاؤها بأجساد الهاشميين ، آه ... هل دخل على أهل بيت ما دخل علينا ؟ آه ، يا رب !

زينب — استعيني بالله

فاطمة — لقد رأيت ابن أخى ، وهو ابن خمس سنين ، يخرج من الخيمة فيتلفت مذعوراً لا يدرى ماذا يرى فلحقته لأدخله، فوجدت... آه، يا رب، وجدت ... الهم ... لقد قتلوا الطفل !

زينب — إصبرى يا فاطمة إن الله مع الصابرين

فاطمة — لقد رموا أخاه فمات فى حجر أبيه فتلقى الحسين دمه بيده ... أنظرى يا زينب ! ألا ترين إلى الدم قد خضب حواشى الأفق ؟

زينب — هذا هو الشفق يا فاطمة !

فاطمة — وهذا السواد الذى غطى على الكون؟

زينب — هذا هو الليل ، مالك يا فاطمة ؟ هذا الليل ...

فاطمة — إننا سنعيش فى فجر دائم لا يلمح فى جوانبه فجر . سنعيش بعد الحسين فى ليل الأحزان السرمدى

زينب — لقد عدت إلى البكاء ! فاطمة إلى متى تبكين ؟

فاطمة — إلى أن يرجع حسين ، حسين خير الفتيان ، وسيد شباب الجنة

زينب — لا حول ولا قوة إلا بالله

فاطمة — حسين يا أخى يا حبيبي ، يا قرة عين رسول الله

زينب — ...

فاطمة — لقد رباك النبي ، وغذتك فاطمة بنت محمد ، ليقتلك سنان بن أنس النخعى ؟ لتكن ملعوناً يا سنان على كل لسان

زينب — تعال كلها يا علىّ ، تعال كلم عمتك

(١) أنشده يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم بين يدى يزيد (الطبرى : ٦ — ٢٦٥)

فاطمة — أين هو علىّ ؟

على — هأنذا يا عمتي !

فاطمة — أدن منى ياعلىّ ، أنت بقية آل محمد. أنت اليوم رجلنا وحامينا ، لم يبق إلا أنت ... آه كل أسرة فيها رجالها ، ورجال بيت النبي مصرّعون فى كربلاء ! لقد وسع المسلمون بعدلهم الذمىّ والكافر ، ولكن عدلهم ضاق عن آل النبى ، لقد قدموا الحياة السعيدة للنصرانى واليهودى ولكنهم لم يجدوا لابن بنت النبى إلا الموت الأليم

أفكان لهم ثأر عندك يا محمد ؟

على — كفّى يا عمّة ، لست وحدك المصابة ، إن المجد والشرف والاسلام ، كل أولئك أصيب يوم أصيب الحسين . كفّى يا عمّة لست وحدك الباكية . ستبكى معك عيون طاهرة لن يجف فيها الدمع إلى يوم القيامة . لقد مات الحسين ، لقد قتل أبى . . . ولكنه سيعيش خالداً بروحه فى جنان الخلد ، وخالدا باسمه فى القلوب . ألم يختر هو الموت اختياراً ؟ ألم يقدم عليه ؟ ألم يعرض عن نصيحة عمى محمد بن الحنفية ؟ ألم يستحلفه عالما الأمة بن عمر وبن عباس أن يقيم فى الحجاز ، وألا يثق بما يقول الكوفيون ، وألا يشق عصا المسلمين ، فأبى ألا المسير ؟ ألم يأته الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وانقلاب أهل الكوفة عليه ؟

فاطمة — بلى بلى ، ولكنه رأى الجور فاشياً ، والمنكر معروفاً ، وأموال الله نهباً مقسماً وحمى مستباحاً ، فنهض ينصر الحق ، ويحيي العدل ، ولم يقم حتى دعوه وألحوا عليه . . . ما كان يظن أن المسلمين يقتلون ابن بنت نبيّهم ، ويذبحون أطفاله ، ويسوقون نساءه كما تساق أسرى الروم . فكيف كان هذا أبا على ولم تطبق السماء على الأرض ؟ أيقتل بنو النبي وتسبى نساؤه ولا يغضب أحد ؟ ألم يبق على وجه الأرض مسلم ؟

هذا ابن بنت النبي ، وفتى بنى هاشم ، لو مات على فراشه لهزّ موته أهل الاسلام ، فكيف وقد قتل مظلوماً ، وقد قتل معه هؤلاء الفتيان البرءاء . وهتكت أستار أكرم بيت رفع على ظهر هذه الأرض ؟ آه . أيطلّ دمك يا حسين ؟

على — إطمئني ياعمة! إن دم الحسين لن يطل. لقد وقع الزلزال فأفاق الناس فزعين ، ولكنّ الهزة لم تدع لهم سبيلا إلى التفكير . إن العالم اليوم حائر مشدوه لأنه لم يكن يصدق أن هذه هى التحية ، كلا ، ولا هؤلاء الذين تألبوا على أبى يحاربونه . كانوا يظنون أنه سيستسلم لهم . كانوا يتحامون قتله ، ويتأون عنه ، لا يريد أحد منهم أن يلقى الله بدمه وأن يبوء بهذه اللعنة ، فلما رأوه مقتولا ذعروا ، وتيقظوا كأنما أفاقوا من حلم هائل

فاطمة — ولكنهم أفاقوا بعد مافات الأوان . يا لهؤلاء الوحوش ! يا للذئاب ... لقد دعوه وألحوا عليه ، حتى إذا جاء نهضوا إليه بالسيوف ، وضنوا عليه حتى بالماء . لقد شهدته يقاتل عطشان قد جف حلقه من الظمأ ، فحسبتهم سيسقونه ، ولكنهم سددوا إلى فمه سهماً ملأ فمه بالدم . هذا هو الذى منوا به عليه !

على — إنهم سيندمون يا عمة . سيمضون أصابعهم حسرة . إنهم سيلطمون على وجوههم لوعة . إن هؤلاء الذين قتلوا الحسين وقتلوا أباه ، هم الذين سيبكون عليه وعلى أبيه . إن الكوفة التى أذاقتنا الغصص ستكون مثابة شيعتنا ، ومثوى أحبائنا ... سيفنى الأعداء ، ويبقى الأحباء ، سيأتي يوم يقال فيه ، أين من قتلوا حسيناً ، أين أنسالهم؟ أين من يبغض آل بيت النبى ؟ قد خلا وجه الأرض منهم ، ليس فى الدنيا من بنى أمية أحد

الدليل — وما ذنب بنى أمية ؟

على — لقد نسيت أنك هنا ، ما كان لى أن أتكلم عن بنى أمية بمسمع منك

الدليل — ولم يا سيدى ؟ إنى من جنود أمية ولكنى محب لكم ولذلك صحبتكم. وهل يتم إسلام امرئ يبغض آل بيت نبيه ؟ إنى والله ما أوثر عليكم بنى أمية ، ولكنها كلمة الحق

على — وما هي كلمة الحق ؟

الدليل — هى أن أمير المؤمنين يزيد لم يرد قتل أبى عبد الله ولم يأمر به ، ولقد كتب إلى ابن زياد ألا يقاتل من لم يقاتله

على — لقد عرف ذلك الحسين ، فسأل القوم أن يدعوه حتى يضع يده فى يد يزيد ، أو يمضى إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل فيه المشركين ، أو يعود من حيث جاء

الدليل — أنصفهم والله ! ولو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له ، عارفاً بقدره ؛ إن لم يمنعه دينه من قتله ، منعته مروءته ، وهو ابن عمه ، أن يرمل نساءه ، ويهتك أستاره

على — صدقت والله ، ما رأينا من يزيد إلا خيراً . أحسن إلينا ولعن ابن سمية وترحم على الحسين ، وكان قصره من البكاء على أبى عبد الله كأنه فى مناحة [1] . ولكن المجرم شمر بن ذى الجوشن

فاطمة — هذا الذى أوقد النار وضرامها . لتنزل عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

على — وعبيد الله بن زياد

فاطمة — هذا الذى أمر بها ، هذا الذى ضرب بقضيبه ما قبله رسول الله . لتنزل عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

على — لقد باءا بلعنة العصور وكانا سبة التاريخ . لقد فقدوا الدين والمروءة ، وخسروا الشرف . لم يستسر حميتهما ، ولم يهج إنسانيتهما ، هؤلاء الأبطال الذين وقفوا يدافعون عن الحق ، ويذودون عن أسرة النبى ، يقاتلون وهم عطاش والموت عن أيمانهم والموت عن شمائلهم ، والموت من أمامهم ، وهم ماضون فى سبيلهم لا يريدون مالاً ولا يبغون جاهاً ولا يحرصون على عرض من أعراض الدنيا ، ولكنهم يريدون الله حتى إذا أحسوا باليأس طفقوا يسارعون إلى الموت واحداً بعد واحد ، وكلما ذهب منهم بطل ودع الحسين وسلم عليه وأسلمه إلى من خلفه ليدافع عنه ، حتى فارقوه جميعاً ليلقوه فى الجنة. هؤلاء هم الأبطال الأشراف الذين ستبقى أسماؤهم درة فى تاج التاريخ تلمع أبداً فتضىء للسارين طريقهم إلى النبل والشرف والمجد : حبيب بن مظاهر ، وزهير بن القين ، والحر بن يزيد الذى كفر عن خطيئته ، وتاب من ذنبه ، رحمة الله على الجميع

زينب — أنظرى يا فاطمة لقد وصلنا إلى المدينة

فاطمة — خرجنا منها منذ شهرين فسجنا فى الأرض ورأينا العراق والشام ولكنا عدنا كالسبايا . لقد خسرنا كل شىء ، آه . أين أنت يا أخى تستقبلنا ، أين فتيان بنى هاشم يحفون بنا ، أين رجالك يا أسرة النبى ..

زينب — يا فاطمة ، إنهم ذهبوا ولكن الله باقٍ

فاطمة — هذه داركم يا آل النبى ، فتجرعوا فيها الآلام . هذه الدار فاذكروا ساكنيها الذين احتواهم جوف الأرض من كربلاء ، هنا كانوا يقيمون ، وهنا كانوا ...

على — قد بلغنا المسجد ، فانزلى فسلمى على الرسول . إنزلى يا عمة

فاطمة — السلام عليك يا رسول الله .. ياجدى .. لقد قتلوا ابنك الحبيب ! على الطنطاوى

(١) تاريخ الطبرى . والكتاب الذى تنشر منه هذا الفصل مأخوذ كله من الطبرى

كان لصاً

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت الليلة هادئة حارة من الليالى التى يصادف أن تكون كذلك فى خلال شهر أكتوبر فتذكر بليالى الصيف وتحمل الناس على فتح النوافذ والأبواب لاستنشاق النسيم المشبع برائحة الأزهار، ودقت أجراس الكنيسة مؤذنة بالساعة العاشرة فكانت دقات تلك الأجراس هى الأصوات الوحيدة التى شقت سكون الليل. واستيقظت عند سماعها الآنسة صوفيا وكانت نائمة فى حجرة أبيها بالكوخ الصغير القريب من الكنيسة وقد تخلل الغرفة ضياء القمر من النافذة المفتوحة.

وكانت صوفيا خفيفة النوم يوقظها أضعف الأصوات وقد سمعت بعد استيقاظها بقليل حركة خفيفة ولكنها غير عادية بالكوخ فقامت من السرير وأطلت من النافذة فرأت رجلا فى الحديقة التى أمامها رافعاً بصره نحو النافذة وقالت بصوت ضعيف: « من هذا؟ » ثم تبينته فقالت: « أأنت توم كلاتشلى؟ »

أجابها الرجل بمثل صوتها خفوتاً: « نعم ياخالتى صوفيا »

قالت: « إذن فامش نحو الباب، وفى دقيقة سأفتح لك »

لكن الرجل ظل واقفاً فى مكانه وقال: « لاتفتحى فقد نسيت أنكم أتبكرون فى النوم؛ وإننا الآن فى ساعة متأخرة، وسأنام الليلة فى القرية مع بعض أصحابى وآتى إليكم فى الصباح لأتناول معكم طعام الأفطار

قالت صوفيا بصوت فيه رنة الغضب « كلا يا ابن أخى فلن أتركك تذهب بمدغيابك سنة كاملة، ولا يهمنى مجيئك متأخراً فان رؤيتك عندى خير من نوم ساعة أو ساعتين. إذهب إلى الباب وسأكون عنده قبل أن تصل إليه

ثم أسرعت إلى الباب والشمعة فى يدها ويدها الأخرى تمتد إليه للترحيب به

وفى بضع دقائق أوقدت النار فى المطبخ. ولما عادت بالطعام قالت: « يظهر أنك جائع وأنك تحس بتعب شديد، فكل ثم أخبرنى أين كنت وماذا كنت تفعل فى هذه المدة؟ »

لكنه لم يظهر اهتماماً بالطعام وقال: « لم أكن فى حالة مرضية فى تلك المدة لأنه ليس من السهل على الانسان أن يهرب من شهرته

وكانت اللهجة التى يتكلم بها دالة على الامتعاض الشديد فقالت: « لكن ذهابك كان حماقة شديدة منك لأنه حمل الناس على كثرة الكلام، فانهم صدقوا الآن كل ما يقال عنك ونسبوك إلى الاجرام »

قال: « وأى شىء ينافى الحق فى قولهم؟ أليست السرقة إجراماً »

فأظهرت صوفيا دهشة شديدة ودقت بيديها على المنضدة وقالت: « سرقة! إنك لم تكن قط سارقاً ولن تكون كذلك. إن السرقة فى نظرى أكبر من أن تتناول شيئاً ثم تنسى أن تضعه مكانه كما فعلت فى صندوق « البسكوت وعلبة المربى » من عند البدال ... إن السرقة هى رغبة الحصول على الثروة وابتلاء الغير بالفقر فى هذا السبيل. وهؤلاء يستحقون الشنق »

قال: إنك لتدهشينى بتفكيرك على هذا النحو

لأنه لم يبد منى ما يبرر ثقتك بى فقد فررت دون أن أحاول تبرئة نفسى »

قالت : « نعم وقد كنت أدرك أنك غير مستريح » فقال: «ولكن لو كان كل الناس يظنون بي كما تظنين ويعاملوننى مثل معاملتك لكان حظى حظاً آخر »

فأطالت صوفيا النظر إلى وجهه وقالت : « ولكن القاضى هنا عادل ، ولم يمكن ثمت ما يدعو إلى الظن بضياع الحقيقة لو أردت إظهارها »

فقال : « هبي أن الحقيقة كانت ضدي فكان فى إظهارها إساءة لسمعتك وتنغيص لك »

رفعت صوفيا رأسها بشكل يدل على الزهو وقالت: « إنك لا تفعل ما يسبب لى ذلك، فانك كنت باراً بأمك وكنت تحبها وتخشى عليها وأنا أحبك مثل حبك وأثق بأنك لن تفعل ما ينغص حياتى »

فقال : « ولكنى وأنا أدرى بنفسى أنصح لك بألا تحاولى إبقائى عندك . وقد زرتك الليلة لأعرف كيف حالتك المالية لأنى بحاجة إلى ثوب جديد وحذاء وقبعة حتى أظهر بمظهر محترم لأني قد وجدت عملاً »

قالت صوفيا وقد تلاشت الابتسامة التى كانت مرتسمة على وجهها : « وهل تريد مالاً ياتوم ؟ إنه ليس لدىّ مال فقد صرفت مصاريف كثيرة فى هذه الأيام . ودفعت أجرة المنزل . و ... »

فقال : « إننى لا أريد أن آخذ المال منك ياخالتى »

قالت: « ولكننى أنا أيضاً لا أتركك بغير مال ما دام الأمر يؤدى إلى وجود عمل لك »

ثم حددت النظر إليه وقالت : « أصغ إلىّ ياتوم! خذ هذه الأوانى الفضية وبعها واشتر لنفسك ماتريد . وانى لأثق تمام الثقة بأنك ستكون مستقيماً لأجل رضائى »

فقال توم : « كلا كلا ياخالتى فانك أحسنت إلىّ كثيراً فى الماضى وأظهرت بى ثقة عظيمة

قالت: « إذا لم تأخذ هذه الأوانى فانى سأبيعها فى الصباح وأضع ثمنها تحت تصرفك »

فتغيرت حالة توم فجأة عند ما رأى تشبثها باظهار العطف عليه وقال : « إننى على كل حال سأرد ما آخذه سواء منك أو من غيرك بعد حصولى على العمل . وأقسم انى سألزم الاستقامة لسبب واحد هو أن يكون ظن الناس بى وثقتهم مثل ظنك وثقتك »

قالت : « أشكر لك هذا الشعور والآن قد آن وقت النوم »

ودلته على الغرفة التى سينام فيها، فقال إنه سينام فى أقل من ربع ساعة . وتركته قائلة إنها ستنام أيضاً

ولكنها لأول مرة فى حياتها لم تف بما قالته فذهبت إلى غرفتها لتقاوم النوم ولتراقب الحديقة . فلما انقضت نصف ساعة رأت شبحاً يخرج من الدور الأرضى فى الكوخ ، فتنهدت وأظهرت ارتياحها وقالت : « الآن أحمد الله على خروج اللص وعلى أنى باهدائى إلى ابن اختى ما أهديت لم أخسر شيئاً ، بل أهديت إليه ما تركه اللص هنا حين سمع صوتى .

وكانت الحقيقة أن لصاً دخل فى المنزل قبل مجىء توم، فلما سمع صوت صوفيا اختبأ وترك الأوانى الفضية؛ ثم سمع ما دار من الحديث ، فانتظر حتى هدأت الأصوات وخرج تائباً حين رأى اللص الآخر قد تاب ، وحين رأى غير اللصة تسرق اللصين معاً

عجوز الصور المتحركة

للكاتب الأسباني بلاسكو ايبانيز
بقلم الأديب محمد محمود دوّاره

رفع رئيس الشرطة ناظريه متأملاً المرأة المسنة ذات الشعر الذى وشمه المشيب فأصبح ذا لون رمادى عجيب . كانت واقفة فى تخاذل أمام مكتبه منذ هنيهة ، ولكن سرعان ما اتخذت لنفسها مجلساً على مقعد قريب منه غير مأمورة ولا منتظرة إذناً أو إشارة

وعاد الرئيس فألقى عليها نظرة فاحصة أخرى ثم أخذ يفحص وريقة موضوعة أمامه ، هى تقرير الاتهام المقدم إليه من رجل الشرطة الواقف إلى جانبه وقفة عسكرية نظامية وما لبث أن صاح موجهاً حديثه إلى العجوز :

إحداث شغب فى دار من دور السينما . التفوه بألفاظ مسيئة فى حق السلطات الحاكمة . التعدى بالسب والاهانة باللفظ والاشارة على أحد رجال الحفظ . تلك هى التهم الموجهة إليك فما هو دفاعك؟

أما هى فكانت فى تلك اللحظة تجيل الطرف بين مكان الرئيس ومكان مرءوسه وقد بدت عليها علامات الذهول حتى كأنها لا ترى شيئاً أمامها

وانتهى الرئيس من توجيه التهم إليها فتقلصت عضلات وجهها وبانت فيه علائم الدهش والاستغراب ثم أغمضت جفنيها ثم عادت ففتحتهما كأنها تستيقظ فجأة على أثر حلم عجيب وهمست قائلة :

— سيدى الضابط ! ليست المرأة التى أمامك سوى بائعة من البائعات المتجولات . أبيع أنواع الخضر على عربة يد صغيرة وقد اخترت لنفسى شارع «تربى» فجعلته منطقة تجارى منذ أربعين عاماً يا سيدى أقوم بهذه المهمة وأحيا تلك الحياة و ...

حاول الرئيس أن يقاطعها ولكنها استمرت فى حديثها غير عابئة بمقاطعته بل بدأ فى صوتها لون من ألوان الاحتجاج

— ليدعنى سيدى الضابط أتحدث كما أشاء . إن كل امرئ يعبر عن نفسه بقدر طاقته ، وكل إنسان يتحدث على قدر عقله

فاعتدل الرئيس فى جلسته وألقى رأسه إلى الوراء ثم تناول فتاحة الرسائل بين أصابعه وأخذ فى تحريكها بمنة ويسرة . لقد عودته الصبر مهنته ودربته ترترة المتهمين أن يكون أكثر صبراً من أيوب . وها هو ذا قد أعد نفسه للموقف الخطير !

— فى عام ١٨٧٠ ، أيام الحرب السابقة لهذه الحرب الضروس القائمة الآن ، كنت فى العشرين من عمرى ، وكان زوجى العزيز جندياً من جنود الحرس الوطنى في الوقت الذى حوصرت فيه باريس . وحدث أن جرح هذا المسكين فى أثناء موقعة من المواقع التى قامت بين الفرنسيين وأعدائهم الألمان فبذلت ما تستطيع امرأة أن تبذل فى سبيل إنقاذ حياته ، ولكنى اضطررت بعد ذلك أن أعمل وأن أعمل بكل ما أوتيت من قوة كى أعيش وكى يعيش معي زوج عاجز عن العمل وابنة لم يهبنا الله غيرها . ومات زوجى كما ماتت ابنتى — وا أسفى —

بعد قليل تاركة لى من بعدها حفيدين

وتوقفت العجوز لحظة عن الحديث حتى ترى أثر حديثها فى الرجلين . غير أنها لم تستطع أن تقطع فى الأمر بحكم أو قرار . فقد كان رئيس النقطة يصفر صفيراً خافتاً وهو يقلب الفتاحة بين أصابعه فى عصبية ومهل بينما عيناه تتطلعان إلى سقف الحجرة . وأما الشرطى الذى جاء بها إلى هذا المكان فقد كان واقفاً فى مكانه إلى جانب رئيسه تلك الوقفة النظامية كأحسن ما يقف الجندى النظامى الذى لا يختلف في سكونه وجموده من تمثال صخرى

هل تسكت عن الكلام ؟ هل تحتج ؟ كلا إنها لا تستطيع . . . ما من الحديث مفر ، وإذن فلتتحدث ولتتحدث غير آبهة بموقف المستمعين منها

— أما حفيدتى جولييت فهي راقصة من راقصات المسارح ، وهى شخصية معروفة جداً ، ولا أحسب إلا أن سيدى الضابط قد رأى صورتها منشورة فى إحدى الصحف أو ملصقة على جدار من جدران المدينة . نعم إننى لا أراها ولا ألتقى بها كثيراً إلا فى فترات متباعدة جداً ، ولكنى أحبها الحب كله . وقد حدث مرة بينما كنت أدفع عربة خضرى وأسير بها فى أحد الشوارع أن كادت سيارتها الفخمة تصدمنى وتروتى معى ، ولكنى سكت راضية بينما صاحت بى هى:

— إنها غلطتك يا جدتى . لماذا تصرين على احتراف مهنة البيع والشراء ؟

وماذا أفعل إذن يا بنيتى ؟ لقد كان حتماً على أن أمتهن هذه المهنة عندما كانت هى وشقيقها طفلين صغيرين لأقوم بواجب الانفاق عليهما وسد حاجتهما . والواقع أننى كنت أحب مهنتى . وعلى قدر لحافك مد رجليك . وإنى وإن كان هذا مبلغ فقرى وحاجتى أصرح بأنى لا أميل ولا أطمئن إلى تلك الحياة التى يحياها هؤلاء الفنانون . ألست ترانى على حق يا سيدى ؟

وهنا أمسك الضابط عن الصفير واتجه إلى المرأة وجعل يتفرس وجهها مهتماً . لعله كان يعرف الحفيدة، تلك الراقصة النابهة الذكر . ولعل هذا هو سر ذلك التطور فى موقفه ! . . .

واستطردت العجوز قائلة :

— أما معبودى ؛ أما أحب الناس إلى وأقربهم إلى قلبى وعاطفتى فقد كان حفيدى ألبير . كان فى ذلك الوقت الذى أحدثك عنه عاملاً فى أحد المصانع الكبرى . كان عاملاً من أنشط العمال وأمهرهم وكان يميل إلى الدرس ومطالعة الكتب . وكثيراً ما كنت أزوره على الرغم من كرهى الاختلاط بالناس وإيثارى العزلة والانفراد بعيداً عن العالم . وكنت كلما زرته جعلت همى الأول مساعدة زوجته فى أعمالها المنزلية وملاعبة طفله الوحيد الذى هو حفيد ابنتى يا سيدى ! تصور مقدار ما فى ذلك من سعادة وهناء ! ليس كل إنسان يستطيع أن يحظى بنعمة الحياة حتى يرى بعينى رأسه أولاد أحفاده

وصمتت لحظة قصيرة ، سبحت فى أثنائها فى عالم من الذكريات السعيدة ثم تمتمت قائلة :

— ما كان أسعد تلك الأيام يا سيدي ! تلك الأيام التى سبقت الحرب . قصدنا فى يوم من أيام الأحد إلى خارج المدينة ، وسط الريف الجميل كى نحتفل بتعيين ألبير رئيساً لعمال مصنعه؛ وجلسنا هناك

على شاطئ السين حيث تناولنا الطعام والمدام ، هنيئاً مريئاً ...

وبعد أسبوعين اثنين حدث ما كنا نخشى ، إذ أعلنت الحرب ...

وفى هـذه اللحظة أبدى الرئيس حركة من حركات الضيق نسبتها المرأة إلى كرهه الاستماع إلى شىء يمت إلى الحرب بصلة فقالت :

— نعم ياسيدى ، بيدك الحق ؛ فأنا أعلم أنه قد مرت علينا أربع سنوات عجاف من جراء هذه الحرب ، وأن سيرة تلك النكبة تذهب بحلم أشـد الناس رزانة وثباتاً . وقد أخبرونى أن المسارح والجرائد السيارة ملت هى الأخرى ترديد سيرة تلك الحرب ووقائعها الدامية . أعرف هذا حق المعرفة كما أعرف أن حكايتى تشبه حكايات الكثيرين والكثيرات غيرى

انضم البير إلى إحـدى الفرق المحاربة إثر إعلان الحرب فلم أره إلا بعد مضى عام عند ما عاد من الميدان مرتدياً حلته العسكرية ، ثم عاد مرة ثانية ، وأخيراً اعتدت احتمال أمر غيابه عن المنزل. وكان لا يخطر ببالى قط أن ألبير كغيره من الناس يستطيع الموت أن يعدو عليه

غير أنه حدث فى ذات يوم أن تسلمت ورقة صغيرة لم أستطع بعد أن تلوت ما حوت من كلمات إلا أن أصرخ باكية مولولة كما ساحت مى زوجته

وبعد أيام قليلة أقبل واحد من زملائه فى الفرقة حاملاً معه بعض متاع حفيدى العزيز ...

وهنا أجهشت العجوز بالبكاء وخفت صوتها خفوتاً ظاهراً وهى تقول :

— لم أره بعد ذلك ياسيدى ، فقد قتلوه !

وكأنهـا عادت فذكرت وعدها بأن تختصر الكلام إذا ما تحدثت عن الحرب فبذلت جهـد الجبارة فى التغلب على عاطفتها وتركت الكلام عن الحرب فعلاً :

— وتعمل أرملة ألبير الآن فى أحد مصانع المواد المفرقعة الواقعة فى الناحية الأخرى من باريس. ولست أرى ابن حفيدي إلا مرات قليلة متباعدة إذ على كل إنسان أن يهتم لأمر معيشته

ولماذا أخجل من ذكر الحقيقة ؟ إننى مذ مات البير وأنا أكثر من التردد على إحدى الحانات . وكل يحاول إغراق همومه والتغلب عليها بالطريقة التى يعرفها . لقد تجاوزت السبعين ، وفى هذه السن وخاصة إذا كان الانسان مثلى مضطراً إلى الاستيقاظ مع الفجر وإلى الذهاب إلى الأسواق الرئيسية لشراء بضاعته التى يعيش منها ، أرى أن كوبة صغيرة من النبيذ هي خير دواء . أليس كذلك ياسيدى ؟

صمت الضابط ولم يجب على سؤالها الأخير ، وكان معنى هـذا بطبيعة الحال أنه رآه سؤالاً غير لائق

ولكنها استمرت فى الحديث وبدا فى أسلوبها وفى طريقة إلقائها شىء من الحدة والحرارة مما دل على أنهـا كانت تقترب من النقطة الحساسة فى موضوعها .

— وفى هذه الليلة بالذات ، بعد الغروب بقليل ذهبت إلى الحانة صحبة العم كرانكفيل . وقد اعتدت أن ألتقى بهذا الرجل هناك فى كل مساء ، وتركنا المكان معاً حوالى الساعة التاسعة ، ولست أدرى لم وقفت أمام باب إحدى دور الصور المتحركة؟ ولماذا رغبت فى الدخول ؟ لفتت نظرى صورة مكبرة تمثل

فتاة ألزاسية جميلة ، أمسك بها جندى ألمانى ضخم الجثة كأنه الحيوان المفترس بينما أخذت المسكينة تبذل أقصى مجهود بدنى للدفاع عن نفسها والخلاص من قبضته . وأنا أحب القصص التى من هذا النوع؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنى من أشد الناس تحمساً للوطن . ومرجع ذلك إلى أنى شهدت حربين مختلفتين ؛ ولكن دعنا من هذا ولنترك الحديث عن الحرب . . .

ورفض العم كرانكفيل أن يصحبنى فى الدخول إلى الدار مع أنى عرضت عليه ثمن تذكرته . والواقع أننى لا أعرف أى الأشياء يحب هذا الرجل وأى شىء يكره ؛ فقد تعود أن يقابل كل ما يلقى بابتسامة واحدة لا تتغير ولا تتبدل

وإذن فقد دخلت الدار وحدى وكان هذا لسوء حظي . ألم يلاحظ سيدى ظاهرة عجيبة فى حياة الانسان ؟ ألم يلفت نظره مرة كيف تعادي الظروف أحد الناس باستمرار ؟ وكيف أنه كلما حاول مقصداً انقلب إلى نقيضه ، وكلما جهد فى سبيل جلب السرور إلى قلوب الناس آذاهم وآذى شعورهم وعواطفهم حتى كأنما الشيطان بنفسه يقوده ويوجه خطاه وحركاته ؟ ولم يتنازل الضابط بالاجابة على هذا التساؤل أيضاً

— تشاجرت مع بائعة التذاكر من أجل قطعة من قطع العملة أدعت هى أنها مزيفة ولم تقبلها بحال من الأحوال ، وأصررت أنا على أنها عملة جيدة لا عيب فيها ؛ ولكنها لم تستمع لكلامى فأغضبنى هذا غضباً شديداً وقلت لها إنها لا تعرف التمييز بين أنفها وبين ...

وعندئذ تدخل حارس الباب بيننا، مع أن هذا ليس من شأنه ولكنه أراد تمثيل دور البطل الذى يجىء لإنقاذ الفتاة النبيلة فى اللحظة الأخيرة ، فألقيت عليه هو الآخر درساً لا أظنه ينساه ...

وفى داخل الدار لازمنى سوء الحظ أيضاً وقاد خطواتى الشيطان فبدأ جيرانى يتذمرون ويتهمونى بأننى كنت أدوس أقدامهم ، حتى أن بعضهم لقبنى بلقب غريب هو « الحيزبون الغطة »

والحقيقة يا سيدى أننى لم أدس أقدامهم وإنما هى نواياهم السيئة التى أوحت إليهم بهذا الادعاء؛ وأنا شخصياً لا أبغض شيئاً فى الحياة قدر بغضى لمضايقة الآخرين .

وقد تبرعت امرأة سمينة كانت تجلس إلى جانبى بتشبيهي ببرميل الخمر من حيث الرائحة ...

برميل الخمر ياسيدى؟ هذا كثير. هذا لايحتمل. عند ذلك اضطررت أنا الأخرى إلى إسماعها رأيى الخاص فيها ؛ فضج الجمهور واحتج ، ولكن احتجاجهم لم يكن منصباً إلا على وحدى دون غريمتى بدعوى أننى أفسد العرض وأننى أشغلهم عن المشاهدة ، ولكن ذلك لم يسكتنى قط . وإن كنت قد سكت أخيراً فإنما كان ذلك لأن قصة الفتاة الألزاسية كانت قد بدأت ...

هى قصة مسلية جداً يا سيدى ، كنت أحب أن أقصها على مسامعك ، لولا مخافة الاطالة والاملال ... وعلى كل حال لا داعى لذلك فلست أعرف كيف انتهت ولا كيف كانت خاتمتها . لم يتركونى أستكمل المشاهدة يا سيدى

وعاد الضابط مرة ثانية إلى التأمل فى سقف الحجرة وإلى الصغير محاولاً الترفيه عن نفسه

— وكان هناك سيد يجلس خلفى تبدو عليه

دلائل المعرفة والعلم بما يتعلق بالصور المتحركة. سمعت هذا السيد يبدى رأيه في الفلم المعروض لبعض جيرانه فى صوت خفيض . وعلى حين غرة تتقدم الفتاة الالزاسية إلى مقدمة الستار محاولة الفرار من مطاردها . ثم يبدأون بعد ذلك مباشرة فى عرض مناظر الخنادق المزدحمة بالجند ومطابخ المسكرات والمدافع

قال السيد العالم بشئون الصور المتحركة الجالس خلفى : إن هذه المناظر فى الواقع قطعة من التاريخ، وإنها ... ماذا أقول ؟ هى مقتطفات واقعية أضيفت إلى صور الفلم . هل استطعت التعبير يا سيدى ؟ هـذه الاضاءات أشبه شيء بقطع من القماش الجديدة التى ترفع بها الأثواب البالية لتبدو أحسن منظراً . ولكنى لا أعرف شيئاً ألبتة عن الصور المتحركة ، وغاية ما كنت أشعر به هو أن ما أرى ظريف ظريف ، بل بالغ الغاية من الظرف والطرافة

وبعد ذلك ظهر على الستار منظر يمثل خندقاً من الداخل ، ورأينا جنداً كثيرين فى وقت راحتهم، وكان أحدهم آخذاً فى تحرير خطاب وهو مسند الورقة على إحدى ركبتيه بينما كان ظهره متجهاً نحو النظارة ، ثم أخذ فى تحريك رأسه قليلاً قليلاً حتى ظهر وجهه ثم ابتسم للمتفرجين

حينئذ فتحت عينى جيداً وجعلت أدقق النظر . إننى لست عمياء ... ولا شك أننى أستطيع تمييز ما أمامى من مرئيات . . . كدت أصيح بكل ما فى حنجرتى من قوة ... إنه حفيدى

ونهضت من مكانى واقفة كي أتمكن من رؤيته جيداً . وحاولت أن أسرع إليه مهرولة فأحتضنه وأشبعه ضما وتقبيلاً . وقد يكون حدث فى أثناء ذلك أننى دهست بعض أقدام الناس فى خشونه ، أو دفعتهم أمامى فى شدة، ولكن عذرى فى ذلك أننى لم أكن قط فى كامل شعورى . وهاج المتفرجون وماجوا ، وتدخل عمال الدار فى الأمر فاعترضوا طريقى نحو حفيـدى وأحاطوا بى إحاطة السوار بالمعصم، ولم يقبل أحد أن يستمع إلى كلامى؛ إذ كان الجميع يعتقدون اعتقاداً جازماً أن ما حدث إنما كان من فعل الخمر في رأسي ، وبدأوا فى دفعى نحو باب الخروج فى قسوة وشدة حتى اضطررت إلى استعمال قبضة يدى فى الدفاع عن نفسى . وجاء الشرطى الواقف الآن إلى جانب سـيدى ، والذى يقولون إننى سببته وأهنته وعضضته فى إحدى يديه مما لا أدرى كيف أمكن أن يصدر عنى . يخيل إلى أننى كنت في حال هى إلى الجنون أقرب منها إلى العقل . وجذبنى الشرطى إلى الخارج وجاء بى إلى هذا المكان دون أن يسمح لى بالكلام أوشرح الموقف ، وبذلك لم يتح لى فرصة البقاء لمشاهدة ألبير

وتلا ذلك فترة سكون طويلة كانت العجوز فى أثنائها تسكب الدمع من عينيها مدراراً إلى أن قالت:

— وهكذا التقيت بحفيدى ألبير أخيراً

وانحنت أمام الضابط انحناءة الخضوع والامتثال وقالت :

— استميح السيد عذراً وعفواً

ثم انحنت مرة أخرى أمام الشرطى الذى ساقها إلى ذلك المكان وقالت :

— كما أطلب عفو سيدى

ثم وقفت وقفة الذل مطأطئة الرأس مشبوكة اليدين على الصدر، مرخية العينين نحو الأرض» وظلت صامتة وهى تشعر فى قرارة نفسها أن دفاعها عن

نفسها لابد بالغ إلى قلب الضابط بينما كانت الدموع تنهمر من عينيها فتهبط جارية على وجنتيها المجمدتين

* * *

ومكث الضابط فى صمته لحظة ثم نظر إلى الشرطى الواقف إلى جانبه وهو رجل ضخم الجثة يحمل على صدره صليب الحرب وقد تحلت ذراعه بشرائط تدل على طول المدة التى قضاها فى الخدمة ، فبادل الشرطى النظر وقد كان يستمع إلى حديث المرأة فى حياد تام طول هذه المدة ولم يبد منه ما يدل على التأثر كما لم تبد منه حركة إلا قيامه بفتل شعرات شاربه مرات . وكأنما كانت هاتان النظرتان كافيتين لتمام التفاهم بين الرجلين ، إذ أمسك الضابط بعد ذلك بالتقرير الذى قدمه الشرطى إليه فناوله إياه فلم يكد يتناوله حتى أخذ يمزقه دون أن ينبس ببنت شفة

وقال الضابط :

— فى استطاعتك الانصراف يا سيدى المحترمة

وكأنما استيقظت المرأة من حلم آخر . أحقيقة أنهم يخلون سبيلها ؟ أتستطيع الآن أن تذهب حيثما تشاء ؟ ما أشد رحمتهم ! ... ولكنها قبل أن تهم بالخروج اتجهت نحو الضابط وقالت :

— وهل أستطيع أن أعود إلى دار السينما ؟ هل يسمحون لى برؤية حفيدى مرة واحدة فى كل ليلة ؟

فلم يسع الرجلين إلا أن يضحكا من سذاجتها ، وإلا أن يقولا لها إنها تستطيع أن تفعل ذلك كلما أرادت

وخرجت أخيراً من مركز الشرطة دون أذى ، ولكنها كانت تشعر بالخجل ولا تميل إلى رؤية أحد من معارفها فى ذلك الوقت حتى لا يلتبس عليه الأمر ويظن بها الظنون . وعند ماوصلت إلى الشارع العام تلفتت يمنة ويسرة وأمامها وخلفها ، فلما لم تر أحداً جمعت أطراف ثوبها فى كلتا يديها وأسرعت العدو بقوة الشباب بينما أخذت عضلات وجهها فى التمدد والتقلص تبعاً لتردد أنفاسها وقد خرجت بعض خصلات من شعرها الأبيض من تحت القناع المزركش الذى يغطى رأسها .

وصلت إلى دار السينما فرأت الجموع الأخيرة من المتفرجين يخرجون والعمال يقومون باطفاء الأنوار ورفع الصور الموضوعة فى الخارج فوقفت على مقربة من الباب ترقب حركاتهم وهى ساكنة لا تتحرك ، مستندة بذراعها على الحائط وأسندت رأسها بيدها الأخرى وأخذت تبكى بشعور المرأة التى فقدت طفلا عزيزاً وتمتمت أخيراً محدثة نفسها :

— يا إلهى ! ... أملى الآن أن أنتظر حتى الغد؟ أنتظر حتى الغد لأرى صغيرى المحبوب ...

* * *

وفى الليلة التالية دخلت المرأة دار السينما فى أدب جم . وعند ما اقتربت من نافذة بيع التذاكر أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى حتى تتحاشى رؤية العاملة لها إياها ولكن حارس الباب رآها واستطاع أن يميزها فاقترب منها وقال :

— لا . لا . هل أتيت الليلة لتكررى فضيحة الأمس ؟ لا تذكرة لك يا سيدة

ثم حاول إخراجها ... ولكنها نظرت إليه ضارعة وقالت :

— دعني أدخل يا سيدى الفاضل ... لقد أتيت لأرى حفيدى وأعدك وعداً صادقاً أننى لن أتعبكم الليلة . فكان لحديثها الساذج هذا أثره فى الرجل جرده من كل سلاح ، فضحك كما ضحكت عاملة التذاكر وسمحا لها بالدخول ، فانحنت أمامهما شاكرة كما انحنت أمام الشرطى الواقف أمام الباب

وعند ما صارت داخل المكان أبدت من الأدب الجم ما لفت لها الأنظار . . . صارت تحيي كل من تلتقى به وتنحني أمام الذين تعرفهم ومن لامعرفة لها بهم حتى تضايق الجميع وصاروا ينظرون إليها شزراً وكأن نظراتهم تنطق بمعنى واحد هو الاشمئزاز

وانكمشت فى مجلسها محاولة شغل أقل فراغ ممكن حتى لا تضايق جيرانها ، ثم جعلت تنظر حواليها نظرات مختلسة لترى تأثير ذلك السلوك فى المتفرجين هل حاز قبولهم أم لم يحزه ؟

— وبدأ العرض فنسيت العالم بأجمعه وبكل حقائقه ؛ وظهر الجندى الألمانى وبدأ فى مطاردته للفتاة الأراسية وأخذ موضوع القصة يتعقد ؛ وسرعان ما ظهرت الخنادق وظهر الجندى بظهره المتجه نحو النظارة وهو منهمك فى كتابة خطاب وقد استند على إحدى ركبتيه ثم اتجه بوجهه ناحية النظارة ، فلم تملك المسكينة أن همست :

— ألبير ... ألبير

كان عليها أن تبذل جهداً هائلا لكى تتمكن من كبت عاطفتها . فتحشرجت تلك الصرخة فى حنجرتها ، وكادت تصل إلى حالة من اليأس من التغلب على شعورها لولا أن ذكرت فى تلك اللحظة ما حدث لها بالأمس فارتعدت فرقاً . إنها لو صاحت الآن أو تكلمت لرمى بها الناس إلى الخارج مرة ثانية ولحرموها نهائياً من ارتياد الدار وبذلك يتم حرمانها إلى الأبد من رؤية جنديها الباسل

دفعها الخوف إلى الوراء وأسكن حركاتها وخلص عواطفها المتباينة ووجداناتها الشتى فى بضع قطرات من الدموع سالت على خديها ، ولكى ترفه عن نفسها بعض الشىء أخذت تتمتم فى صوت خافت إلا أنه عميق لأنه خارج من صميم قلبها ، وكانت عيناها ترقبان القصة من فوق الستار

— ألبير يا صغيرى ... هأنا أمامك ... ألا تعرفنى ؟ سأحضر لمشاهدتك كل مساء ... فى كل مساء يا ألبير

* * *

وفى الليلة التالية قل بكاؤها عن ذي قبل فقد بدأت تعتاد مشاهدة هذه القصة

وعند دخولها الدار تحدثت إلى حارس الباب كما لو كان صديقاً قديماً . قالت وهى تحاوره :

— أشهدت كيف أجاد حفيدى اللعب ؟

فلم يسع الرجل الذى لم يكن يعير حديثها كثيراً من الاهتمام إلا أن تبادل نظرة مع عاملة « شباك التذاكر » وكأنه كان يسألها عن رأيها فى مبلغ حمق هذه العجوز

وعادت العجوز إلى مسكنها ولكنها لم تستطع النوم إلا بعد جهد جهيد ... كان ضميرها يعذبها ويؤنبها ... إنها أنانية ... نعم أنانية محبة لذاتها . ألم تستأثر بكل هذه اللذة التى اكتشفت مصدرها لنفسها بينما كان لألبير فى عالم الأحياء أناس آخرون

غيرها يهمهم أمره ويسعدهم أن يروه بعد أن فقدوا الأمل فى رؤيته مرة أخرى ...

وما كادت شمس اليوم التالى تبزغ حتى أسرعت العجوز إلى السوق فباعت خضرها دون أن تهتم كثيراً بمبلغ ما تصيب من ربح ، ووضعت العربة فى مكانها فى وقت مبكر بالنسبة للوقت الذى اعتادت وضعها فيه فى الأيام العادية ، ثم سارت ميممة ضواحى باريس إلى أن انتهت إلى المكان الذى تقصد . وهو مكان يكاد يكون مظلماً لكثرة ماحوى من مصانع ضخمة ذات مداخن هائلة وأبنية كأنها السجون هى التى يأوى إليها عمال تلك المصانع هم وأسرهم

واقتربت من أحدالمساكن سائلة عن زوج حفيدها وابنها ، فأخبرت بأن الطفل بالمدرسة وأن أمه تعمل فى المصنع ، فقصدت تواً إلى ذلك المصنع ، غير أنها ما كادت تصل إلى هناك حتى منعها الحارس — وهو جندى سابق — من الدخول قائلا إنه من المستحيل عليها أن تدخل ، لأنهم يقومون الآن بصناعة الآلات الحربية وأطلت العجوز برأسها لترى ما ذا فى داخل المصنع قبل أن تترك الحارس فوقع نظرها على جملة نساء منهمكات فى العمل وهن رائحات غاديات وقد ارتدين ملابس طويلة من لون واحد ذات سراويل ضيقة قد التصقت بسوقهن وأفخاذهن فجعلتهن أشبه بالمتسابقين من راكبى الدراجات !

ودوى فى المكان صوت جرس ضخم مؤذناً بحلول وقت الغداء لعاملات المصنع وعماله فخرجوا جميعاً واستطاعت العجوز أخيراً أن تلتقى بأرملة حفيدها وأن تتحدث إليها

كان وجه الأرملة شديد الشحوب ، وكانت عيناها أكثر اتساعاً مما عهدتهما المرأة ، قد أحاط بهما وتحيط هالتان سوداوان . وما كادت تسمع خبر ظهور زوجها ألبير فى دار الصور المتحركة بعد مقتله حتى استخرطت فى البكاء وقالت فى صوت مختنق :

— كيف يمكن هذا يا جدتى ؟

وتكلمت العجوز محاولة الشرح والايضاح ، ولكن الأرملة حاولت عبثاً أن تفهم ما تقول : وأخذت العجوز تردد كلمات الرجل الذى جلس خلفها فى دار السينما وتكرر شرحه الذى لم تكن هى نفسها تفهم منه حرفاً واحداً ، وأخيراً ختمت حديثها قائلة :

— دعينا من هذا كله ... الواقع أن البير يظهر الآن على ستار السينما ؛ فما عليك إلا أن تحضرى أنت وولدك لرؤيته ؛ وسوف أنتظركما هذا المساء

قالت هذا القول فى لهجة يخيل لسامعها أنها صادرة من فم ملكة من الملكات تدعو بعض أتباعها ورعاياها المثول بين يديها فى القصر الملكى !

— وسوف تجدانى فى انتظاركما عند باب الدار الواقعة فى الناحية الأخرى من باريس

وافترقا بعد ذلك الحديث القصير على أن يلتقيا فى المساء .

وفى الموعد المحدد وصلت الأرملة وولدها فكان لذلك وقع حسن على العجوز طربت له كل الطرب ؛ وكانت الأرملة ترتدى فى ذلك الوقت ثوباً أسود جديداً كما ارتدى الطفل أحدث أثوابه

وعند ماحاولت الأرملة أن تبتاع تذاكر الدخول

اعترضت العجوز واحتجت فى قوة وحزم قائلة

— ماذا تعنين بتصرفك هذا ؟ سأدفع أنا ثمن التذاكر ، إن أصحاب الدار يعرفوننى حق المعرفة ويعاملوننى كفرد من أفراد أسرتهم

ولكى تبرهن على صدق قولها تبادلت بعض كلمات المزاح مع عاملة التذاكر ثم صافحت حارس الباب — عدوها القديم — وقدمت إليه سيجاراً رخيصاً اشترته منذ دقائق لهذا الغرض وهي تقول :

— الهدايا الصغيرة تحكم أواصر الصداقة . أرجو يا صديقى العزيز قبول هذه الهدية التافهة

وفى داخل الدار حيت أحد العمال تحية الصديق لصديقه الحميم ، ثم قالت وهى تنفحه ببعض القطع النحاسية :

— هذه هى زوج حفيدى الذي يعمل عندكم فى الروايات وهذا هو طفله

وأخذ الجميع مجلسهم فى المقاعد التى أرشدهم إليها العامل ، وبدأ عرض القصة على المتفرجين ؛ وبدأت سلسلة مخاوفها وأوهامها . كانت تخشى وقوع حادث يصدر عن الأرملة الجالسة إلى جانبها إذا ماظهر ألبير على الستار . غير أن الأرملة كانت فى الواقع من الذين يحتملون آلامهم فى صمت وفى شجاعة . جلست ترقب المناظر التى تتوالى أمامها بعينين ذاهلتين ثبتت حدقتاها فصارتا أشبه بعينى مدمنى المورفين ، وجعلت تضغط شفتيها بأسنانها محاولة كبت عواطفها الثائرة وقد جرت مدامعها على وجنتيها فى اطراد

أما الطفل فكان يشاهد الرواية فى براءة تلك السن التى نسمع فيها عن الموت دون أن نعرف كنهه أو حقيقته

ولقد استطاع أن يعرف الجندى الذى ظهر على الستار متجهاً بوجهه المبتسم نحو النظارة ... نعم لقد عرفه فقد رآه أخيراً فى منزلهم فى نفس الرداء الذى يرتديه الآن ، ولكنه لم يعد مرة أخرى إلى المنزل فلماذا لم يعد ؟

وقف فى مكانه ثم مد ذراعيه الصغيرتين نحو الصور المتحركة أمامه وتمتم فى صوت منخفض قائلا

— بابا ... بابا ...

ولكن أمه وجدته سرعان ما أجلستاه فى مكانه وأمرتاه بالصمت وقلباها يكادان يتفطران من الغم والأسى

وعند ما خرجوا من الدار قالت العجوز :

— غداً نلتقى فى هذا المكان مرة أخرى

— ولكنى أقيم فى أقصى حدود باريس ياجدتى ومن واجبى أن أستيقظ مبكرة للذهاب إلى المصنع ولكى أعد الطفل للذهاب للمدرسة . إن الحضور مرة أخرى إلى هذا المكان يكلفنى ما لا طاقة لى به . . . ثم ما فائدة الحضور مرة ثانية ؟ لن يعود ألبير إلى الحياة ... وهذه الصور تقتلنى قتلاً بطيئاً

فرمقتها العجوز شزراً ... لقد طالما شكت فى أن هذه المرأة الصغيرة لا قلب لها ... وها هو ظنها يتحقق

— أجل ... بيدك الحق يا بنية . إن الانسان الوحيد الذى يذكر ألبير هو جدته العجوز البائسة

* * *

وفى اليوم التالى كان الحزن مستولياً على العجوز

استيلاء تاماً ، فما كاد الليل يسدل ستاره على الكون حتى أخذت تطوف فى الطرقات باحثة عن العم كرانفيل الذى اشتهر بين معارفه ولدانه باسم « فيلسوف السوق » وبأنه لا يهتم بشئون الآخرين فقد كانت تعلم أن الرجل على الرغم من اشتهاره بهذه الصفة يعطف عليها ويهتم بأمرها ...

وفى الحانة المعهودة جلس الاثنان وأخذت العجوز تروى قصتها الاخيرة وأفهمته أنها قد تغيرت تغيراً كلياً بعد ذلك الحادث الفذ الذى جد فى حياتها ، حتى صارت امرأة أخرى غير التى كان يعرفها من قبل ، فهي تبسط يدها كل البسط وتاتى بالنقود هنا وهناك بغير حساب . وهى تذهب إلى السوق متأخرة فتشترى بضاعتها بأغلى الأثمان لتبيعها بعد ذلك بأبخسها غير حاسبة حساباً للخسارة التى تلحق بها ، قال الفيلسوف :

— إنك تحطمين نفسك بنفسك . إنك تنتحرين . إن تصرفك هذا معناه ضياع رأس مالك

قال هذا القول ولكنه لم يمتنع عن قبول أكواب الخمر التى كانت العجوز تطلبها له

وظلت العجوز جالسة إلى جانب العم كرانكفيل إلى الساعة الثامنة مساء ثم نهضت فجأة وقالت :

— إلى اللقاء يا كرانكفيل فإنى ذاهبة الآن لآخذ حفيدتى معى كى تشاهد أخاها وهو يمثل فى السينما

— ولكن حفيدك قتل

— أعرف أنه قتل ... ولكنه مع ذلك يمثل فى السينما

فهز الرجل كتفيه استخفافاً ولم يتكلم إذ كان يعتقد أن الكلام فى هذا الموضوع لا فائدة منه الآن ، ولقد علمته الحياة ألا يهتم بشىء فى الوجود وأن ينظر إلى الخطير من الأمور نظرته إلى التافه منها

* * *

ضغطت العجوز الزر الكهربائى ووقفت خلف الباب الضخم ترتب ثوبها الحريرى الأسود متأملة إياه لتستوثق للمرة الأخيرة من ملاءمته لها ثم تمتمت قائلة :

— لا بأس . إنه يلائمنى تماماً كما لو كان قد صنع لى خصيصاً لا لابنتى ، ثم إن القماش الجيد سرعان ما ينبئ عن نفسه

وكان رأسها عارياً ولكنها لم تكن ترى فى ذلك من ضرر لأنها كانت دائمة المفاخرة بشعرها الأبيض الناعم ...

ومرت لحظة قصيرة أعقبها سوت خطى مقبلة نحو الباب . فلما فُتح ظهرت خلفه فتاة فى مقتبل الشباب ما كادت العجوز تراها حتى شعرت بالاشمئزاز من حركاتها الصبيانية الطائشة ومن تلك النظرات الحادة التى كانت تلقيها عليها من أخمص القدم إلى شعر الرأس

— أيتها العجوز الطيبة القلب ! إن كنت قد أتيت تستجدين أو تطلبين المساعدة من سيدة المنزل فانى آسفة أن أقول لك إن السيدة ليست هنا وأن عليك أن تكلفى نفسك عناء زيارتنا فى يوم آخر

لاشك أن هذا الحديث أثار العجوز وأغضبها فجعلت ترمق الفتاة بنظرات حادة كما بدأت تتمتم مرددة بعض الشتائم الشديدة، ولكنها توقفت عن ذلك عند ماشعرت بيد تمسك إحدى كفيها والتفتت إلى الوراء لترى الشخص الذى اجترأ على الامساك بها فوقع نظرها على سيارة فخمة قد وقفت عند

الباب الخارجي للمنزل وهذه التي أمسكت بها هي السيدة الأنيقة صاحبة السيارة والتي هبطت منها لتضم العجوز إليها وهي تقول :

— جدتي ... جدتي ...

وكانت أولى الملاحظات التي لاحظتها العجوز أن حفيدتها الراقصة الكبيرة كانت تلبس ثوب الحداد ... نعم إنه ثوب فاخر غالي الثمن ، ولكنه ثوب الحداد على كل حال ... ولا شك أن الراقصة لم ترتد هذا الثوب إلا حداداً على وفاة أخيها ألبير..

وعند ما أصبحت العجوز داخل المنزل صارت تتأمل أثاثه وتحفه بعين الاستغراب حتى ألوان الجدران المركبة كانت تستلفت نظرها وتستدعي تأملها .

وما كادت تذكر اسم ألبير بعد ذلك أمام الراقصة حتى تحركت عاطفتها وبدا عليها التأثر الشديد وترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول :

— كم كانت خسارتي فادحة بفقده . نعم إننا لم نكن على صلة عائلية دائمة ولم نكن على اتفاق لأنه لم يستطع أن يفهم كيف أحيا ولكنني كنت أحبه حباً عميقاً مكبوتاً ...

وهنا تناولت صورة شمسية كانت موضوعة على منضدة صغيرة قريبة منها وأدنتها من فمها ثم طبعت عليها قبلة حارة ... ولم تكن سوى صورة ألبير ..

كم أثر هذا الوفاء وهذا الاخلاص في قلب الجدة حتى أنها قالت محدثة نفسها :

ومع هذا يتقولون الأقاويل ويزعمون المزاعم الخاطئة عن جولييت من أجل المهنة التي اختارتها لنفسها والأسلوب الذي رسمته لحياتها ... أكاذيب... مفتريات... ترهات ... إنها أطيب فتيات العالم قلباً وأطهرهن سريرة ! ... غير أن هذا الحماس الزائد في الدفاع عن جولييت سرعان ما اعتراه بعض الفتور عندما لاحظت العجوز برود الراقصة وفتورها لدى سماعها قصة الاكتشاف العظيم الذي اكتشفته في دار الصور المتحركة

كان جوابها على خبر هذه المفاجأة الرائعة أن قالت

— عجيب ... هذا عجيب في الواقع !

ثم تنبأت على أثر ذلك بما تريده العجوز منها فقالت:

وأنت الآن قد أتيت ياجدتي تريدين أن أصحبك لرؤيته أليس كذلك ؟ حسن ! سأذهب معك الليلة ، ولكن على شرط أن تبقي معي هنا لنتناول طعام العشاء معاً ... ولعل سيرة ألبير قد ذكرت الفتاة الراقصة بأمور أخرى فقد استأنفت الحديث قائلة :

— نعم ياجدتي لم يكن ألبير هو الوحيد الذي ذهب للحرب . هناك آخرون لا يزالون على قيد الحياة، وأمرهؤلاء يبعث على القلق ويثير روح الكره لهذه الحرب أكثر من أمر الذين استشهدوا وانتهى أمرهم

وكانت الراقصة تفكر في هذه اللحظة في صديقها أو عشيقها وهو شاب غني جميل لم تره عجوز الأسواق ولم تعرفه، وكانت الاشاعات ترشحه للزواج من جولييت

وأزف موعد تناول الشاي فلم تستطيعا أن تتحدثا بأكثر من ذلك إذ بدأ صديقات جولييت وزميلاتها يفدن على المنزل زرافات ووحداناً وكلهن قد ارتدين أفخر الثياب وأثمنها قيمة وأكثرها أناقة ؛ وأمام ألوانها الباهرة ودقة صناعتها بهرت العجوز بل أخذت عقيدتها في حفيدتها وسلوكها تتزعزع

وأبدى الجميع إعجابهن بثوب الحداد الذى ترتديه جولييت حتى أن إحداهن ذهبت في إعجابها شوطاً بعيداً إذ قالت مازحة :

— ألا يعد من حسن الحظ أن يموت للانسان أخ أو أخت فيستطيع أن يلبس حداداً عليه ثوباً جميلاً كهذا ؟ إن اللون الأسود لون رائع وهو يبدى محاسن المرأة بشكل أروع مما يبديها أى لون آخر

وبدأن جميعاً يدخّن ثم ارتمين بأجسادهن على الأرض متكئات على وسائد بعضها من الحرير الخالص وبعضها من فراء الدببة الثمينة ، ومد البعض منهن أطرافهن كالحيوان البليد غير عابئات بما يعرضن للأنظار من أجزاء فى أجسامهن يجب أن تكون مستورة دائماً وقد شبك البعض الآخر أيديهن على ركبهن المرفوعة وأسندن ذقونهن عليها

كان الشاى ومعداته موضوعاً في آنية فنية من الفضة على الأرض بين الأجسام البشرية الطرية، وكان الصباح الخافت يرسل شعاعاً خفياً من النور الأزرق البديع . وقدمت جولييت جدتها إلى الحاضرات فى شجاعة قائلة :

— هذه هى جدتى التى تبيع الخضر كل صباح فى شارع تربى ... إننى أفخر بأسلافى كما يفخر أى معاصر من نسل الصليبيين بأجداده

وقابل الجميع حديثها هذا بالقهقهة ومرت فترة قصيرة نسى الجميع بعدها أمر العجوز

أما هى فلم تكن راضية عن هذه الأفعال، ولم تكن مطمئنة إلى هذه التصرفات ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تخشى الاساءة إلى شعور حفيدتها فكانت تنتقل فى حذر من مقعد إلى مقعد كما تفعل أى طفلة صغيرة تخشى المجتمعات إذا أرادت الفرار من مجتمع ما ... إلى أن وصلت أخيراً إلى غرفة الطعام ... وهناك استطاعت أن تستجمع شجاعتها المفقودة فنهضت من مكانها ملقية عنها الخوف جانباً وسارت فى الغرفة التالية حيث التقت بالخادم التى لم تحسن لقاءها فرمقتها شزراً وهى تقول :

— قليلة الأدب !

وشعرت بالارتياح عندما انتقمت من الخادم بهذه الكلمات وسارت فى طريقها إلى أن هبطت بضع درجات أدت بها إلى المطبخ. وهناك استطاعت أن تقدر ثروة حفيدتها أكثر من ذى قبل عندما شاهدت الأوانى الكثيرة اللامعة التى كانت كل آنية منها تتوهج فى ضوء المصباح كاللهب

وهناك رحبت الطاهية بزائرتها أجمل ترحيب فوضعت على المائدة زجاجة من النبيذ وكوبين وأخذتا فى الاحتساء وكل منهما تسرد أحزانها ومتاعبها فى الحياة على الأخرى . وفى أثناء ذلك أخرجت الطاهية صورة شمسية من أحد جيوب ثوبها فقبلتها ثم قدمتها لزائرتها وهي تقول:

— صورة ولدى الذى يعمل فى الصيد فى جبال الألب . فألقت عليها المرأة العجوز نظرة عابرة ثم أخرجت هي الأخرى صورة من بين ثنايا ثوبها وقدمتها للطاهية وهى تقول :

— حفيدى الذى قتل فى الحرب والذى يظهر الآن كل مساء فى دار الصور المتحركة

فلم تكد الطاهية تسمع هذا الكلام حتى تحركت فى مقعدها حركة عصبية وقد اتسعت حدقتا عينيها إذ أيقنت أن المرأة العجوز الجالسة أمامها ليست سوي ضحية من ضحايا الجنون، ولكنها لم تبد

ما يعبر عن هذا الاعتقاد لا لشيء إلا لأن تلك العجوز هي جدة سيدتها وصاحبة نعمتها

* * *

وحان وقت تناول العشاء فدعيت العجوز إليه ، ولكنها عند ما وجدت نفسها في قاعة الطعام جالسة أمام مائدة عظيمة إلى جانب حفيدتها وصديقاتها الفنانات شعرت بانقباض شديد وبأنها بعيدة عن الجو الطبيعي الذي ألفته بعداً شديداً

كانت تتناول الطعام بشهية حسنة ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تتحرق شوقاً لساعة انتهاء الجميع من تلك المهمة . وكانت لا تنفك بين آونة وأخرى تنظر إلى الساعة المعلقة بالحائط كأنها تتعجل سيرها

وحوالي الساعة الثامنة اتجهت جولييت نحو جدتها وقالت :

— لا داعي للعجلة يا جدتي فما زال لدينا متسع من الوقت

وما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى ارتفع في المنزل صوت ضجيج عال وأجراس كثيرة ، ثم سمع من قرب صوت رجال مقبلين ، وأقبلت الخادم تلهث وقالت :

— سيدتي ... لقد حضر السيد ... !

ولم تزد على ذلك حرفاً واحداً ، ولكن العجوز فهمت الباقي فنهضت من مكانها كسيرة النفس محزونة الفؤاد وقد اغبر وجهها وتقلصت عضلاته . وحينئذ أقبل شاب جميل الصورة يرتدي لباس ضباط الطيران فما كاد يتقدم خطوة واحدة في الغرفة حتى أسرعت جولييت إليه وكأنها تطير ولا تسير ...

— لاشك أنها زيارة غير منتظرة ، ولكني جئت باريس في مهمة خاصة وليس لدي من الوقت سوى أربع وعشرون ساعة و...

ولم يستطع ان يتم حديثه إذ كانت جولييت قد طوقت جيده وارتمت على جسده وأخذا يتبادلان القبلات

ورأت العجوز هذا المنظر فانسحبت وهمت بالخروج من الغرفة ، ولكن جولييت لمحتها فتخلصت من يدي عشيقها وأسرعت نحوها وهي تقول :

— ها أنت ترين ياجدتي .. ليس لديه من الوقت سوى ليلة واحدة ونهار واحد . لن أستطيع الذهاب معك الليلة .. هذا مستحيل . الأيام آتية ياجدتي .. يجب أن نفضل الحي على الميت

***

ألفت العجوز نفسها وحيدة في شارع حالك الظلمة وكان البرد قارساً والأنوار جميعاً مطفأة تحذيراً للقوم من حملة جوية مقبلة ، وكانت تتمتم في أثناء سيرها قائلة :

— الحياة تتطلب الحياة ؛ والأحياء في حاجة إلى الأحياء ؛ وياويلتا على من مات من الناس !.. الكل ينسون الأموات

حتى رواد دار الصور المتحركة أظهروا جحودهم بشكل واضح ، ففي تلك الليلة لم يكن المتفرجون سوى عدد يعد على الأصابع ... لقد مل الرواد قصة الفتاة الأرستقراطية ومطاردها

وجلست العجوز في مقعدها بين المقاعد الفارغة ، وكأنها ملك من الملوك أمر بعرض رواية من الروايات لمتعته الخاصة . وعند ما ظهر حفيدها على

الستار جعلت تخاطبه فى صوت هامس قائلة :

— أسعد الله مساءك يا صغيرى ! لقد هجرك الجميع ونسوك . هكذا الحياة يا صغيرى فلا تحزن . واعلم ان جدتك العجوز لن تتركك ولو تركك أهل الدنيا بأسرها ... ستجدنى هنا كل ليلة ... كل ليلة يا صغيرى المحبوب

* * *

أخذت الأخبار والأشاعات تنتشر فى الساعات الأولى من مساء اليوم بانتهاء الحرب وحلول السلام. بدأت ضعيفة خافتة غير مؤكدة، واستمعت العجوز إليها دون أن تعيرها أى التفات لأنها تعودت أن تسمع أمثالها من قبل ، ثم اتضح لها كذبها بعد ذلك

ولكن لم يكد يحل وقت الغروب حتى تأكد الناس من صحة تلك الأخبار إذ أعلنت الحكومة خبر عقد الهدنة

وبغير أن تعرف المرأة كيف حدث هذا ولا فى أى وقت حدث وجدت نفسها وسط جمهور كبير يدفعها تيار اندفاعه وتزاحمه نحو قلب المدينة دون أن تستطيع لذلك وقفاً ودون أن تستطيع منه خلاصاً . وسرعان ماسيطرت عليها روح الجماعة فعمرتها رجفة الحماسة وانتقلت إليها عدوى الفرح فهتفت مع الجماعات الهاتفة التى كانت تملأ الشوارع

ووصلت إلى ميدان الكونكورد . وكان الجمهور يردد بأصوات كهزيم الرعد بعض الأناشيد الوطنية وقد أخذ بعض أفراده يلوحون ببنادق مأخوذة من الألمان كانت معروضة فى الميدان

وأقبل نحو العجوز جمع من الشبان فرفعوها فوق أكتافهم وساروا بها يطوفون الشوارع وسط الجموع الزاخرة

كان شعرها الرمادى الجميل قد انتثرت خصلاته وتشعث وجعل يتحرك تبعاً لحركات الريح، ورفعت كلتا ذراعيها فى حماس شديد ثم جعلت تنشد فى صوت قاصف نشيد المارسيز ، فلما انتهت من إنشادها حياها الجمهور بالهتاف والتصفيق

ولم يكن بطبيعة الحال بين هذه الجموع الهائلة من الناس من يعرف من تكون هذه العجوز الشمطاء . غير أن مجرد وجودها بينهم أثار فيهم ذلك الاحترام الغريزى الذى توحى به الشيخوخة دائماً ، وكان بعضهم يرى فيها رمزاً حيًّا لعظمة الثورة الكبري وأثراً من آثارها ظهر فجأة بعد فترة من الزمان تزيد على القرن ...

ولم يمض وقت طويل حتى انفض الجمع ووجدت العجوز نفسها منتصبة على قدميها وسط الشارع وحيدة ...

أين الجموع الحاشدة ؟ أين البنادق التى كانوا يلوحون بها فى الفضاء...؟ أين الشباب المتحمسون الذين رفعوها فوق الأعناق ...؟ لقد اختفى الكل وليست تدرى أين ولا كيف اختفوا

إنها الآن تسير فى الشارع الملكي إلى جانب تلك المطاعم النموذجية الكثيرة ... وها هى حانة مكسيم الشهيرة أمامها وقد خرج عمالها إلى الشارع يوزعون أقداح الخمر على المارة تبرعاً من أغنياء القوم واحتفالا بذلك اليوم السعيد

وتقدمت فى السير قليلا فوجدت نفسها بين جماعة من الجند الأمريكيين تتبادل وإياهم الحديث

كانت تحب الأمريكيين وقد عرفت أن هؤلاء الشبان منهم عندما رأت قبعاتهم ، وقد أعجبها منهم حسن منظرهم ودلائل الصحة البادية فى وجوههم وفى حركاتهم ، وروح المرح المتجلية من أحاديثهم وإشاراتهم، وذكرها أكثر من واحد منهم بحفيدها ألبير فهتفت بأعلى صوتها :

— لتحى الولايات المتحدة ! !

أما هم فكانوا يفهمون حركاتها وإشاراتها أكثر من فهمهم لكلماتها؛ غير أن هذا لم يكن يعنيها فى كثير ولا قليل ، بل كانت تعتقد أن كل ما يحتاج إليه المرء للتفاهم مع الأجانب الذين لا يفهمون لغته ولا يفهم لغتهم هو أن يتبادل الود معهم وأن يكون حسن النية . وكأن طرب العجوز ومرحها قد أثرا فى الأمريكيين فصاروا يضحكون ويقهقهون كأنهم أطفال كبار

وتلمست المرأة موضعاً معيناً فى ثوبها حيث وضعت كيس نقودها الذى حملت فيه كل رأس مالها؛ فلما اطمأنت إلى وجوده فى مكانه جعلت تشير بكلتا يديها معبرة عن رغبتها فى دعوتهم للشراب على حسابها

غير أن الأمريكيين اعترضوا فى أدب كثير واعتذروا من عدم قبول دعوتها إذ أن فكرة السماح لامرأة أيا كانت بالانفاق عليهم لم تكن لتروقهم

ولكن العجوز صاحت فى صوت قوى قائلة :

لا . لا .. إنكم الآن فى وطنى ، فى بيتى، وأنا أصر على دعوتكم؛ فان رفضتم تلك الدعوة المتواضعة كان ذلك الرفض طعنة مؤلمة موجهة إلى . وما أظن أن إيلام امرأة عجوز مثلى يرضيكم ! ..

وأخيراً دخلوا جميعاً أحد المقاهي وظلوا نحو نصف ساعة فى سرور ومرح يحتسون أكواب البيرة التى قدمتها العجوز إليهم ثم انصرفوا

أما هى فقصدت إلى الحانة التى تعودت أن تلتقى فيها بالعم « كرانفيل » فيلسوف السوق فوجدته جالساً جلسته الخالدة التى لا يغيرها فحيته وجلست إلى جانبه وطلبت لها وله زجاجة من زجاجات النبيذ، ولكنها ما كادت تفرغ من نصيبها من الخمر حتى شعرت بحاجتها إلى مسرة أكبر وأروع مما وجدت من أنواع المسرات فى تلك الليلة. ذكرت دار الصور بظلامها الذى يبعث الاطمئنان والسكينة فى أشد النفوس اضطرابا خلافا لكل ظلام عرفه الانسان ، ومناظرها الجميلة التى كانت فى نظرها الأنقل جمالاً عن أجمل ما عرف الانسان من مناظر

ياله من شعور سار ! وياله من سرور جارف ذلك الذي كان يستولى على حواس تلك المرأة أثناء هاتين الساعتين اللتين كانت تقضيهما جالسة على مقعد مريح تتناجى ، كأروع ما تكون المناجاة الروحية ، مع حفيدها المحبوب ألبير ! لا شك أنه لم يسمع بعد بذلك النبأ السعيد الذى هز مشاعر الباريسيين عن بكرة أبيهم بل مشاعر الناس جميعاً فى جميع أنحاء الأرض ، ولكنها ذاهبة الآن إليه وسوف تسر إليه بذلك النبأ ليأخذ نصيبه من السعادة مع الآخذين

التفتت إلى كرانكفيل ثم قالت وهى تنهض من مكانها :

— طاب مساؤك يا كرانكفيل . سأتركك الآن لأن حفيدى ألبير فى انتظارى . مسكين هذا

الصبي ، إنه لا يستمتع بأجازة أو راحة بل يعمل في كل الليالي

فشعر الفيلسوف في هـذه اللحظة بقوة تدفعه إلى توجيه نصيحة لصديقته فقال :

— إنك تقتلين نفسك . إنك تنتحرين دون شك . تأكلين قليلا وتشربين كثيراً . ترمين نقودك بغير حساب. ولا شك عندي إذا استمرت الحال على هذا المنوال أنك ستفقدين رأس مالك كله . ما هذا يا امرأة ؟ لقد رأيتك بالأمس تبتاعين نصف بضاعتك اقتراضاً ؛ ويخيل إليّ أنك في الأسبوع الأخير عشت أعواماً وأعواماً

ولـكنه عاد بعد تلك المحاضرة فابتسم ابتسامته الساخرة التي قلما فارقت ثغره وأردف قائلا :

— على أنه إذا كان هـذا يروقك وتجدين فيه سعادتك ... فلا بأس

ثم هز كتفيه كما تعود أن يفعل دائماً

وأسرعت المرأة قاصدة دار الصور . أسرعت على الرغم من شعورها بالتعب المضني وعلى الرغم من أن قدميها كانتا لا تطاوعانها على المسير؛ وكانت تمني نفسها في أثناء سيرها بجلسة مريحة في تلك القاعة المظلمة الهادئة الجميلة، وكان الظلام سائداً على المدينة كما كان يسودها قبل إعلان الهدنة وقد انتشرت في أنحائها جماعات من الهاتفين والراقصين وفرق الموسيقى

واقتربت أخيراً من مدخل الدار فحياها الحارس وهو يضحك ، ولم يضحك ؟ أليس سعيداً ؟ أليس الجميع سعداء في هذه الليلة ؟

ولـكنه كف عن الضحك فجأة كأنه تذكر شيئاً لم يكن يذكره وقال :

— لقد ترك حفيدك العمل هنا وذهب ونحن نعرض الليلة برنامجاً جديراً بالاعتبار

— ماذا ؟ !

نطقت بهذه الكلمة صياحاً يكاد يكون باكيا ؛ ثم أسندت جسمها المضنى إلى الجدار المجاور وبدا على وجهها المنضن شحوب كشحوب وجوه الموتى وقد اتسعت حدقتا عينيها

وتطوع الحارس بتفصيل ما أجمل فقال محاولاً تخفيف وقع المصاب على المرأة

— لقد انتهى الأسبوع ياجدتي ونحن كما تعرفين نغير برامجنا كل سبعة أيام . إن الجمهور قد مل قصة الالزاسية الحسناء ومطاردها الألماني؛ ثم إن الله قد أنعم علينا أخيراً بنعمة السلام فمن الواجب أن نعرض شيئاً يتناسب مع هذا المعنى الجديد في حياتنا. الناس جميعاً يريدون من صميم أفئدتهم أن ينسوا الحرب وشقاءها وأن يسعدوا أنفسهم؛ ونحن نعرض الليلة لجمهورنا الباحث عن المسرة والسعادة والمرح رواية جديدة من روايات شارلي شابلن؛ وأصدقك القول يا جدتي أنه شريط ساركاذا شهدته فسوف تستغرقين في الضحك

فأجابت في صوت يشبه الأنين :

— لن أراه بعد الآن ... لن أراه بعد الآن

ثم أخرجت من صدرها زفرة حارة عميقة وقالت:

— لقد قتلوه قتلة أخرى ...

كان منظر المرأة المتخاذلة داعياً لتجمهر الناس حولها ، فرأى الحارس منعاً لتفاقم الأمر أن يحاول الترفيه عنها فأخذ يخاطبها قائلا :

— رفهي عن نفسك يا جدتي . أتقتلين نفسك في ليلة كهذه الليلة لا لشيء إلا أننا غيرنا برنامج

الدار : هذا كثير يا سيدتى وعلى كل حال سوف أرى

ثم اتجه نحو بائعة التذاكر وسألها عن شىء ما فسرعان ما قدمت إليه كراسة صغيرة أخذ يفحصها على ضوء المصباح القريب وهو يتمتم قائلا :

— فلنر هذه القصة الملأى بالنباء قصة الألزاسية أين هى الآن ! يجب أن تكون معروضة فى مكان آخر ... شريط عفن هو مجموعة من السخافات .. أين هو الآن ؟ آه ها هو

ثم اقترب من المرأة وأفضى إليها باسم دار من الدور الحقيرة وسمى لها الشارع الذى تقع به

— دار بعيدة قليلا يا سيدتى ولكنك هناك ستّرين حقيدك. ثم ابتعد عنها ولم يعد يعيرها أى التفات إذ أن الجمهور بدأ يقبل نحو الدار لمشاهدة البرنامج الجديد

* * *

وعادت المرأة مرة أخرى إلى الطريق وأخذت تسير وقد استولت عليها فكرة واحدة فجعلت تتمتم قائلة

— لقد قتلوه مرة ثانية .. قتلوه فى هذا اليوم الذى يشعر فيه الجميع بالسعادة

وتحسست كيس نقودها المرة الثانية فى هذا المساء فلم تجد فيه إلا القليل من القطع النحاسية مما يكاد يكفى لشراء تذكرة واحدة فى دار «السينما» التى تعرض الرواية . ولكنها كانت متعبة ، كانت فى أشد الحاجة إلى الراحة والمكان بعيد فماذا تصنع ؟ لاشىء... ليس فى وسعها إلا أن تسير، وكيف تسير وقواها خائرة ... فليكن ... يجب أن تسير ... قدماها لا تطاوعانها ...

ومرت بذهنها فى تلك اللحظة فكرة غريبة ماذا يحدث لو أنها مدت يدها وسألت الناس إحساناً ؟ إنه يوم عيد وسوف يرى الناس شيخوختها المحطمة وعلامات الأسى والتعب بادية عليها فلا يتأخرون عن مساعدتها

ولكنها سرعان ما استعادت كبرياءها المفقودة فقالت مخاطبة نفسها :

— إننى لم أسأل الناس إحساناً قبل الآن ؛ وأظن أن هذا وقت متأخر غير مناسب للبداية فى هذه الدلة ومع ذلك يجب أن أراه ... يجب أن أراه مهما كانفى الأمر

وتقدمت قليلا غير أنها توقفت بعد لحظة قصيرة واستندت إلى جذع شجرة من الأشجار المنتشرة على طول الطريق ؛ وكانت أبواب الحانات والمراقص المقابلة تلمع فى ناظريها كأنها أبواب الأفران المستعرة ؛ وكانت الأصوات المنبعثة من الفرق الموسيقية المنتشرة فى كل مكان تسبغ على الجو روحاً من المرح والسعادة

وتنهدت المجوز قائلة :

— يا لبعد المكان . . . يا لبعده !

* * *

ولحظة قصيرة رأت من خلال الدموع التى ملأت عينيها شيئاً غريباً . . . رأت أمامها شبح جندى يبتسم . . . جندى يرتدى ثوباً أبيض ناصع البياض يغطيه من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه

يا للغرابة ... ! إنه جسم شفاف لا يحجب ما خلفه من مرئيات؛ وها هى تستطيع أن ترى أشجار الافريز المقابل واضحة كل الوضوح على الرغم من اعتراض جسمه المسافة القائمة بينها وبين تلك الأشجار ... كأنه جسم من الزجاج أو من البخار

هاهوذا الجندى يشير إليها إشارة معناها أن تتبعه، انتظرنى ... أنا آتية ... ها أناذى آتية ياحبيبى ...
وهاهوذا يتقدمها فى المسير، وهاهى تحاول بكل قواها

(السويس) محمد محمود دوارة

أن تنفذ مشيئته فلا تستطيع

— إننى متعبة يا ولدى ... جسمى مضنى ... أطرافى تنضح بالألم ... لا أستطيع أن أتبعك ... إن المسافة طويلة ... طويلة

ثم ارتمت على جذع الشجرة فى غير توازن، فاتجه إليها الجندى وقد بدت على وجهه الجميل علامات الحزن العميق، فرفعت ناظريها إليه وقالت فى صوت هامس وفى لهجة تنم عن الاعتذار الشديد:

— لا تحزن ... لا تحزن يا بنى ولا تغضب ... آه لو تعلم مقدار ما أعانى ومقدار عجزى عن الحركة، إذن لعذرتنى ... ولكن ثق ... ثق أن جدتك لن تتركك أبداً. ألبير

الى راسمى اللغة الفرنسية فى جميع انحاء العالم ، الى راغبى الالتحاق بوظائف البنوك والشركات الاجنبية ، الى المحبين الذين يرغبون فى تفهم أساليب الفرنسية وأسرارها عن طريق المقارنة مع اللغة الانطق : كتاباه جديداه :

جارسون ... واحد شوب !

فانتازية بسيكولوجية
للكاتب كارديك لاهوفسكى
بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعه

كان قد مضى على اجتماعهما أربع سنين ، سنين أربع . من الصيف إلى الصيف . هـذا الاجتماع الأول من أربعة أعوام فى مدينة لوزان ، عاصمة مقاطعة فو بسويسرا ... لوزان أوشى ، بحيرة ليمان — ما أجمل هـذه الأماكن ... الجبل الأبيض يرى لامعاً بالبياض تحت أشعة القمر ، كما يرى أحمر ساطعاً تحت وهج الشمس ، وتلك الألوان البنفسجية واللازوردية والوردية التى تبدو فى سفحه ، إنها لعجيبة ، ولكن الأعجب منها لون الجليد الناصع الذى تعتم به قمة الجبل فى كل شهور العام ، على مدى الأسابيع والأيام ... وكيف كان ذلك اللقاء الأول ؟ إن لودفيج دى چيميبه لايذكره ، ولايستطيع أن يقف عقله عند تفاصيله . كان طالب هندسة ورياضيات عليا فى كلية پوليتيكنيك ، يجيد حساب المثلثات والهندسة الفراغية واللوغارتمات والتحليل الرياضى ... ولكنه ما كان قط يجيد الغرام ولا يتقنه . بل كان مشغولاً بالسياسة والجمعيات السرية ... ففى أوقات فراغه يغشى مجالس الروس والطليان — جمعية الدائرة الحمراء والكف السوداء وإخاء چوزيپى ماتزينى — وكان شغفه بحياة الخفاء فى السياسة — بعد أن اقتنع بضرورته — يملك عليه لبه . فهاهو ذا وطنه پولونيا قد اقتسمه الأغيار مثالثة بعد أن تنازعوه حقباً طويلة . وكلما اغتال پولونى حر حياة حاكم ظالم أو قاض غير منصف أو بصاص خؤون ، عدوه مجرماً ذاخطورة لايستحق عقوبة أقل من الاعدام . ولكن الأحرار قد باعوا الأعمار بيع السماح ، فلم تكن لديهم وسيلة أخرى غير هذه . فلما نزل لودفيج مدينة لوزان اختار لنفسه مقراً فى بنسيون ڤيلا بيانكا — الذى يملكه دى ناڤا ويديره ڤيلا بيانكا أحد منازل افنيو ديزالب التى كان يقطنها موسيو بروشيه وزوجته ، وقد نزحا إلى ڤيلا ميسيدور فى طرف المدينة الغربى بعد أن باعا بيتهما الفخم لهذا الابطالى المهجين فى الفكر ، فقد كان أديباً شاعراً ، وثائراً سياسيًّا ، وداعية اشتراكيًّا ، ناقماً على النظام الرأسمالى . وفى نفس الوقت كان مديراً للفندق ،

تعريف بالقصة

كان فى الامكان تحوير عنوان القصة . ولكننا احترمنا إرادة المؤلف ونصه فقد أراد أن يجعل من تلك المأساة التى سببتها خيانة المرأة مهزلة ساخرة ليسلخ الضعفاء من الرجال بما يقيهم شر الانحلال الخلقى حيال غدر الجنس اللطيف . ولذا احتفظنا أيضاً بوصفها الفنى « فانتازية نفسانية » وهى كلمة اغريقية معناها خيال أو أمر عجيب نادر أو ابتكار رجل ينفرد به فى الحياة أو الفن أو التأليف ، كل يعيش على هواه ، فهى بهجة شاذة أو بدعة فذة وقد تؤدى معنى المسخ أو التحوير أو السخرية . وكارديك لاهوفسكى مؤلف پولونى من أتباع هنرى سكويتز مؤلف كوفاديس الشهيرة وقصة مونتكارلو وقد وصفها بأنها فانتازية ، والمؤلف هنا يتعمق فى نفسية المرأة والوالدة والعاشقة المهجورة والمستهترة والمتألهة والتى تشعر بالخيبة فى الأدب والسياسة والزواج فتأخذ أول رجل تلقاه ثم تعبث بقلب الرجل الذى يخلص لها وتخضع للنذل الذى يشبع رغبتها وهى وسط بين العقل والجنون والعفة والدعارة . إنها لقصة مدهشة حقاً

يتقن القيام على خدمة أضيافه، ويظهر شمم الشاعر، وترفع المصلح عن عبادة المال ، وقد يتخلى أحياناً عن المساومة فى الأثمان والأجور لزوجته كريمونا . وكانت سويسرية على جانب من الدمامة ، ولا ريب أن دى نافا قد باع إليها نفسه فى مقتبل عمره لقاء دنانير معدودة كانت ورثتها ، فرزقت منه ولداً ... ثم هجرها فى مضجعها ، فافترقا على أنهما يعيشان تحت سقف واحـــد . ولـكنه عكف على حب « أنّابيلا » ، وهى خادم ألمانية ذات جمال ورشاقة وسحر ، ولـكنها مفرطة فى البلاهة . وكان دى نافا يعاشرها جهاراً ليلاً ونهاراً ويغار عليها من كل قادم ويرقبها عن كثب لوثوقه من عدم الوثوق بها ، فهى بهيمة الأنعام فى الشهوات . أما الزوجة الشرعية فكانت تقطن فى أسفل الدار فاذا جاء الليل ودقت الساعة العاشرة صعد نافا إلى مخدعه وترك الشرعية الدميمة تتحرق، فتودعه فى أسفل الدرج قائلة :

« بونا نوتى كاروا »[1] وكان من مظاهر سلطان الرجل عليها أنها تخاطبه بلغته وقد تخلت عن لسانها وهى فى وطنها . أما دى نافا وكان عملاقا ملتحياً ، لا يصلح إلا أن يكون نموذجاً حياً ينقل عنه المصورون أشباحهم الملونة أو تماويلهم الممثلة بالطين المشوى[2] فلما حل لودفيج تلك الفيلا أحسن دي نافا وفادته ، وأرسل إليه عشاءه فى غرفته ذات الشرفة والنوافذ المطلة على البحيرة وجبال الالب تحمله تلك « البُنية » الشقراء التى هى أشبه النساء بجرتشن عروس المأساة الجوتيه[3] ولم يكن لودفيج زير نساء ، ولـكن دى نافا لم يصبر على بقاء البنت فى غرفته ريثما تضع المائدة وتعد الطعام فناداها « آنابيلا ! آنابيلا ! » وكانت هذه المناداة تحز فى أحشاء زوجته الدميمة التى كانت تعلم أنها صدى لغيرته على الخادمة المحظية المفضلة عليها فى كل ليلة .. وفى أحد الأيام دعا دى نافا إلى الغداء بضع نساء وبضعة رجال من الروس الثائرين والمشردين عن أوطانهم بأمر الحكومة القيصرية . وكان لودفيج يجلس بطبيعة الحال إلى تلك المائدة ، بحكم أنه نزيل بأجر . وكان دى نافا رقيقاً دقيقاً لبقاً إذ استأذنه فى الجمع بينه وبين أضيافه قائلا فى لغة إيطالية نقية (وكان لدفيج قد أتقنها منذ ساح فى لومبارديا وتوسكانيا وأقام ردحاً من الزمن فى تورينو وفيرنزه) :

— انظر هنا ياصاحبى ! أنتم فى الهوى سواء . هم مظلومون ثائرون ناقمون على حكومتهم وإن كانت منهم لحماً وعظماً ودماً ، ولـكنها تخالفهم فى الرأى وطرائق الحـكم ، وتحل الظلم محل النصفة ، وتؤثر طبقات الأغنياء والشرفاء المزعومين على غيرها من طبقات الأذكياء والمتعلمين والصناع والزراع والأنتليجنتزيا[1] الناقمة على تقسيم الأرزاق وتوزيع المناصب ؛ وأنتم أيضاً مظلومون وثائرون لأن الحاكمين فى أوطانكم غرباء عنكم ، فاذا نقمتم عليهم وطعنتموهم بمدية أو أطلقتم رصاصة اعتقلوكم وحاكموكم محاكمة جائرة ، ثم شنقوكم أو ألقوكم فى غيابات سيبريا أو حصون بطرس وبولس ! أليس كذلك ؟ غير أنى أفطن إلى عاطفة أخرى ، فقد لا تحبون الجنس الذى خرج منه المستبدون فيكم ، وإن كان أفراده فى وطنهم مظلومين ...

(١) عم مساء أيها العزيز بالايطالية (٢) terra cotta

(٣) هى رواية فاوست تأليف جوته .

(١) كلة إيطاليه intelligentzia صارت دولية ومعناها الذين تثقفوا فى المجتمع الحديث وآثروا المعرفة على جمع المال

فأنت يا سيدى حر ، إن شئت قبلت دعوتي وتغديت مع أضيافى على المائدة العامة ، وإلا فانك تتغدى فى غرفتك فهذا حقك الذى لا ينازعك فيه أحد .

فضحك لدفيج لإمهاب الايطالى فى شرح موقفه وتبريره وقبل دعوته شاكراً . وبعيد الظهر بربع ساعة دخلت امرأة رشيقة فى مقتبل العمر فأجالت عينيها فى الجالسين حول المائدة . ثم جلست قبالة لدفيج الذى أحس منذ الوهلة الأولى التى رآها فيها باعجاب بها لاحد له ، وود كما يود المرء أحياناً لو تسمح الشرائع أن يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة . لم تكن ألفاظ الجاذبية الجنسية قد سُكّت أو صيغت[1] ولم يعرف لدفيج عبارة «سيكس إبيل» التى ملأت الأفواه والأسماع بعد ذلك ببضع سنين ؛ ولكن المعنى كان فى النفوس والعقول ويستحوذ أحياناً على الشعور . وقد أحس لدفيج أن هذه الفتاة فتاة أحلامه التى أعدت لها الطبيعة فى قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا ، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التى هام به خياله الشاب ، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه ، فلم تتضايق من نظراته ولم تحمر خجلا . ولكن غيرها من النساء لاحظن ما حدث ، فحاول أن يصرف بصره عن الفتاة فلم يستطع ، وظل محدقاً فيها . ولم يكلمها في أول الأمر ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما فالتقتا وتعارفتا منذ التقت نظراتهما وأخيراً وبعد الجهد والمقاومة قالت له بالروسية :

— إنك بلا ريب تحب السمك ! سؤال عجيب مدهش دَلّ على ارتباكها المصحوب بالرغبة فى

(١) تعبير لطيف باللغة الأصيلة ، إشارة إلى أن الألفاظ تسك وتضرب كما تسك النقود

« تحطيم حجاب الجليد[1] بينهما »

فأجاب بالبولونية : أحب السمك بأنواعه وأكره التكلم باللغة الروسية التى لا أجيدها

فصاح من آخر المائدة صوت نكير يقول : ولكن قوانين بلادك تحتم عليك أن تتقنها وتؤدى امتحان الدولة بها . وكان المتكلم كهلا أصفر اللون كريه الهيأة يدعونه الكولونيل فشاروف ، تدل صلعته المربعة ولحيته المدببة وعيناه المستطيلتان تحت حاجبين مقوسين على صورة علامة الاستفهام أنه بلغارى من إحدى إمارات البلقان اللواتى يتملقن روسيا ويتقربن إليها ولو على حساب ضحاياها . فصمت لدفيج هنيهة وأطال النظر فى وجه الكولونيل المتقاعد ، وشعر كل الحاضرين بأنه يُعد سهما قاتلاً يحدث به جرحا من جراح اللسان التى لا التئام لها . ولكن الفتاة — وقد عرف أن اسمها جوتى مصغر أوجستا بادرته بنظرة مهدئة مستعطفة ، فاستلت سهام الغضب من جعبته قبل أن يصوبها . فابتسم ولم يجب ، وحول وجهه عن ناحية الكولونيل فشاروف ، فكان لهذا المسلك فى نفوس الحاضرين وقع أقتل وأفظع وأفجع مما لو أنه تكلم . ولكنه فى حالة صمته لم يضع فى يد أحد سلاحاً يناله به سوء . وطربت جوتى لما علمت من مكانتها فى نفسه ، وأنه أطاع إشارتها فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأ وميضها نفسه نوراً .

ومرت « الغدوة » بخير الكلام .. وهو ما قل ودل وثبت فى ذهن دى ناقا أن مأدبته فشلت ولم ينل منها مأربا ، وأن السبب فى فشلها كانت كلمة ذلك الكولونيل المتقاعد فشاروف ، ولكن رأى لدفيج

(١) افتتاح الحديث briser la glace أى وضع حد للصمت ، يشبه الصمت بالثلج

كان مخالفا لرأى الداعى فقد نجحت المأدبة النجاح كله ونال منها أكثر مما أمل ، ففاز بهذه الفتاة التى لو أنفق ما فى جيوبه جميعاً لم يكن ليظفر بلقائها. فلما انسحبا بعد الفراغ من الفاكهة اختارا مجلساً فى البهو واختلسا ساعة للحديث ، وكان حديثاً لذاً كأنه قطع الروض . ثم افترقا على مصافحة اليد ، لا يفتأ يحس إلى المساء بأثرها فى يده وكأنما لمستها الكهرباء. وكان إذ يستذكر دروسه أو يقرأ كتبه أو يقلب صحف المجلات ، يفكر فيها أبداً ويستعيد ذكراها فى نفسه ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه فى وحدته . ثم افترقا بغدر الزمان فسافرت أوجستا إلى وطنها دون أن تودع صديقها وهو لا يعلم سبب هذه الرحلة المفاجئة . . وتنكرت له المدينة وضاقت فى عينيه على رحبها ، وتنقل بين فنادقها ونزلها ، وعاد إلى عطف مدام بروسيه ولحية زوجها .. وحاول فتيات من كل جنس ولون أن يتصلن به ليخضعن كبرياءه لسلطان الحب فلم يفلحن لشدة عناده وصلابته ولأنه كان منشغلا حقاً بحب أوجستا ... وبعد شهر أو شهرين نزح هو الآخر محاولاً أن ينسى تلك التى « رحلت ولم تترك عنوانها » فلم يفلح فى محاولته .

وفى يوم من أيام شهر يوليو القائظة الشديدة الهجير فى لوزان ترجل لدفيج على إفريز المحطة من القطار القادم من إيطاليا ، وقصد إلى دار البريد فى ساحة فيدرال ، فتناول حزمة من المكاتيب والبطاقات المصورة كانت تنتظره بذلك الصندوق المبارك ، صندوق الغرباء ، ومستودع الجوالين والمستنفضين « پوست رستانت » ، ثم إلى مطعم « غليوم تيل » وبدأ فض الرسائل فكان أول ماوقع عليه بصره بطاقة بصورة دانتى وبياتريس ، وقد خطت عليها بضعة أسطر :

« صديقى العزيز ! ها أنا ذي فى لوزان مرة أخرى ، وأبعث إليك بتلك الرسالة على أجنحة المصادفات ، هل تصلك أم تخطئك . إننى هنا نزيلة « فاميلى هاوس » إلى بضعة أشهر . كل شىء تغير إلا صداقتى نحوك »

أوجستا على بضع خطوات ! لقد قطع الشوق شهية الطعام ، وتغلب الوجد لرؤيتها على تعبه . فود لو يذهب من ساعته لرؤيتها قبل أن يذهب إلى النزل الذى تعوده وهو نزل لوسرن المطل على البحيرة ، ثم عاوده التعقل والأناة ، فخير له أن ينزل فى نفس الفندق الذى اتخذته مقراً ، ليكون على مقربة منها ، وإن تكن تلك الطريقة فى توريط النساء مكشوفة ... فنهض و « حجز » غرفة بالتليفون فى « فاميلى هاوس » ، ثم أمر بنقل متاعه إليه كعادته قبل أن يصل لتكون غرفته على أتم استعداد للقائه . وقبل الغروب بلحظة وصل إلى الفندق وهو يتقلب على أشواك الانتظار ويلوك حنظل الصبر . وعلى مائدة العشاء قلب أجفانه فى الطاعمين والنزلاء — لأنه لم يشأ أن يسأل أحداً عن صاحبته التى لم يرها منذ أربع سنين ، خشية أن يثير الظنون — فلم يجدها فهم بمغادرة الخوان دون أن يأكل . وإنه لكذلك وإذا بها تقبل فى حياء ، وقد لبست السواد وعلى ثوبها زينة من الدنتلا السوداء والخرز الأسود جعله فتنة الناظرين ... ولكنها كانت مصفرة اللون ، كالعاج ، وفى عينيها شبه ذهول فلم تلق نظرة على أحد ولم يأخذ بصرها لدفيج المترقب الذائب . فعلل إغضاءها بدهشة القادم . وسره أنه لم يهف

بالتسرع فى السؤال أو الانصراف . ولكنه لم يأكل إلا قليلا من كل لون ، ليتمكن من اللحاق بها لدى نهوضها . وكانت عند ظنه بها فنهضت وحيت وانصرفت وانفلت فى أثرها ، فرآها تنحدر فى الدرج دون أن تلوى على أحد ، فتبعها ولم يشأ أن يفاجئها على السلالم ، وصبر حتى خطت بكعب الغزال واخمصيه هادئة ، وصارت فى بهو فسيح مفروش بالطنافس ثم دخلت من باب إلى مخدعها وغلقته وراءها . فوقف لدفيج بعد أنفاسه قبل أن ينقر على الباب نقرة خفيفة . ففتحت له سيدة فى العقد الرابع حمرية اللون ذات وقار ومحاسن سالفة ، فحياها وسأل عن مدام أوجستا ، فابتسمت وقالت لا أعرف مدام أوجستا ولكنى أعرف مدام دامسكي

وفى تلك اللحظة تكلمت من الداخل بصوتها الملائكى وقالت بالروسية : هنا تفضل . وأسرعت للقائه فرأى فى ضوء الغرفة حمرة فى خديها وبريقا فى عينيها لم يكونا لدى العشاء . وكانت الغرفة واسعة ولها شرفة مطلة على البحيرة والجبال . فدعته إلى الجلوس فيها ثم عرفته إلى السيدة التى فتحت الباب وقالت إنها والدتها وقد صحبتها لتقضى بضعة أيام فى لوزان . ثم رجتها أن تصنع للضيف قدحا من الشاى

ومر لدفيج فى طريقه بسرير صغير فيه طفل نائم ... فنظر إليه ثم انحنى عليه فاذا به مريض ... فنظر لدفيج إلى وجهها فأيقن أن الطفل طفلها ، فلم ينطق بكلمة . وأخذ مكانه فى الشرفة فى صمت وأحس بأنه فى جو قاتم ، وأن أوجستا تحاول أن تظهر السرور بلقائه وتبطن ما تعانى من ضنك وألم . فانها لم تلبث أن قدمت له الشاى حتى جلست بقرب ولدها واجفة القلب يذهلها الخوف عليه وقد استعصى داؤه . تنظر إليه وقد غشيت محياه الوديع صفرة كئيبة وأحاطت بأجفانه زرقة قاتمة . وأنعم لدفيج النظر فى صدره فاذا به يهبط بطيئا ويرتفع بمشقة وعناء . وكان لدفيج يتلهى بجرعات من الشاى ويرسل إلى الأرض بنظرات ساهمة . ثم تشجع قليلا وسأل الجدة : أمريض من زمن طويل هذا الصغير ؟

قالت : منذ ثلاث سنين لا تعرف ابنتى سجو المنام ولا طعم الهناء .

قال : كيف ؟ ألا تعرف العلة ؟ أو ليس فى روسيا حيث كنتم أطباء . فقالت الجدة :

— لقد استعصى الداء ، وغمض الدواء ، وعجز نطس الأطباء

فضحك لدفيج ضحكة طويلة وهو يشعر أنها فى غير موضعها فى تلك الغرفة الملآنة بالخوف والكدر . وتبادلت المرأتان نظرة مذهولة . وساد الصمت قليلا ثم قالت أوجستا :

وأنت متى وصلت وأين نزلت وهل بلغتك رسالتى التى بعثت بها وأنا متأكدة من ضياعها ؟ فقال :

— دانتى وبياتريس ؟

فلمعت عيناها وقالت : نعم . وهل هى السر فى اهتدائك إلىّ ؟ لم أكن وربى أحب أن ترانى على هذه الحال . ولكن الأمراض تستأذن على أحسن الأسر [1] وابتسمت للنكتة

فنهض لدفيج وقال : ومن طبيبه فى هذه البلدة ؟

أجابت : دكتور كالينيني ، طريد القيصر ، وهو شيخ كبير كان مدير مستشفى الأمراض فى موسكو

(١) أصل النكتة أن بسمارك أصابه دمل ضخم فى عنقه فرآه الأمبراطور غليوم فقال : له دمل بهذا الحجم أيها المستشار ؟ فأجابه : هذا يحدث لأفضل العائلات يا مولاى

ولكنه منذ نفيه قد تغيرت أحواله وصار يبدو كالشبح؛ ولاأظن فيه من القوة مايعينه على التشخيص والعلاج ولكننا لانعرف فى هذه المدينة أحداً غيره .

فضحك لدفيج مرة ثانية وقال : لا عليكما ياسيدتى ! لا عليكما . ونهض وخرج .

فنظرت المرأتان فى إثره ثم عادتا تقلبان كفاً على كف وقالت الجدة : أهذا الذى كنت تذكرين مناقبه ؟ فأجابت : لا بد أنه طرأ عليه طارئ ذهب بمعظم لبه

كان لدفيج يعرف من عهد الجامعة طالب طب صغير هو جوردان بارتولوسكى ، بولونى مثله ، وكان لا يزال يكابده وقد ذاع صيته منذ تخصص لعلاج الأطفال . وقد اتخذ لوزان مقراً لعمله . فقصد إليه وكان يقطن بيتا فخما فى شارع « بنك ڤدرال » فالتقيا وتصافحا . ودعاه لدفيج لعيادة الصغير . وكان بارتولسكى شابا قصير القامة مستدير الوجه أزرق العينين وضاء الجبين هادئ الصوت ، يتكلم كالعلماء ويهبط على المرض كالملائكة ويعالج كالملهمين . ولم يكن فى ثيابه متأنقاً . فلما طرقا باب السيدتين فى الفندق ترددت الكهلة فى الاذن لهما . ولكنها فتحت كارهة خشية إغضاب ابنتها .

فدخل الطبيب واتجه قُدُماً إلى سرير الطفل ، وأطال النظر إليه ثم جسه وقلب ظهره وفحص أحشاءه؛ وكان ينظر إلى الولد بعينين هادئتين قويتين ، كأنهما تمزقان حجب الغيب وتنفذان إلى سرائر الحنايا . وقد بكى الطفل وهو يقلبه ، ولم تكن أمه سمعت صوته أمداً طويلا ، ولم ترَ دموعه تنحدر على خديه . فلما فعل أسرعت المسكينة إليه تنهنه دمعه وتهدهد آلامه . وقد حاولت أن ترسل له نشيدا فخانها صوتها ، وطأطأت رأسها تذرف الدمع زفرات تفيض حسرات وأسى ، ولكن الجدة كانت تتبع حركات الطبيب بارتولسكى بعناية وقد غمغمت فى نفسها وحدقت فيه وهو يفحص بعناية ، ومر بخاطرها ماتلاقيه بنتها من هم ملح وأسى لايشفق . وجلس الطبيب الشاب وأخرج قلماً وورقاً فسألته الجدة :

— هل يشفى الولد ويبقى لها ؟

فابتسم وقال : نعم ! بقليل من العناية . ودوّن الدواء ووصف ألوان الغذاء وأوقاتها بدقة رائعة ، بعد أن روى أطوار الداء السابقة كأنه كان يرى ويسمع . وهمس فى أذن لدفيج أنهما حيال حالة خبيثة من مرض « تريسكايا فولينجوس » الذي يصيب طفلاً من كل مليون ، ويشفى منه واحد من عشرة مرضى ، وأن علاجه الأوحد حقنة تحت الجلد من « فلورا ببكتوراليس » ولما كان الداء نتيجة لدغة من ذبابة سامة « موشاتو كسينوس » فلا يهزم السم إلا تلك الحقن والهواء النقى والحمام الفاتر وشراب البابونج بزهر البرتقال . وفتح الطبيب حقيبته الصغيرة وكانت تحوى عشرات الأدوية ، وحقن الطفل ، ووعد بعيادته فى الغداة والعشى . وحييا وانصرفا تاركين المرأتين فى ذهول . وفى الصباح جاء الطبيب وصاحبه ؛ وكان وجه الأم متهللاً ، فقد نام الطفل هادئاً للمرة الأولى . وضحك لدفيج ضحكته الأولى ؛ وكان الحمام الأول بالماء الفاتر وماء كولونيا ثم الحقنة وشراب البابونج وعصير البرتقال . وانصرف الطبيب وبقى لدفيج يواسيها ويرقب الطفل تارة فى الشرفة وطوراً بجوار نافذة تأتى بنسمات من هواء الشمال المشبع برائحة أزهار الألب والجبل الأبيض ... وكان مقامه يطول أحياناً ، ويطلب أن يتغدى مع الأسرة فى إحدى غرفها ، فتلبى إدارة الفندق طلبه . وقد أخفى عن صديقته مجاوزته أمداً

حتى لا تسيء تفسير إقامته أو تخطىء الرأى فى تعليلها

وكانت أوجستا تترك الفندق أحياناً ضحى وأخرى عصراً وهى لابسة السواد الذى ألفه لدفيج فلا يسألها ولا تتطوع بالدلالة على مخارجها ومداخلها. وتحولت العلاقة من عاطفة الحب إلى عاطفة الحنان. ونشأت صداقة جديدة بين الأم ولدفيج من طول ما انفردا، وكانت المرأة قصاصة حاذقة ومحدثة ماهرة تطوى الأخبار وتنشرها وتجيد سرد الوقائع وتلخيص الكتب. فانتهز لدفيج غيبة أوجستا يوماً وسألها: لم أكن أعلم أن كريمتك متزوجة

فقالت: ظنك فى موضعه وهى لاتزال غير ذات بعل وإن تكن ذات ولد... أما كيف صارت أماً فهذا سرها. وأظنه سبب اغترابنا. فوجم لدفيج قليلاً ولمحت الكهلة اللبقة وجومه فتنحنحت وقالت «أظنك كنت تحبها وتعجب بها أما الآن فلا!»

فقال: إنها زادت حسناً فى نظرى، وزادها الألم جمالا وفتنة، ولكنى مذ رأيت الطفل عولت على أن تبقى زيارة مفردة لا تتكرر احتراماً للزوج الحاضر أو الغائب

فقالت المرأة: لو كان الزوج غائباً أو حاضراً ما بعثت إليك بتلك الرسالة. فقال: ولكننى عند ما رأيت الطفل المريض ولم أجد رجلاً يحيطها بعنايته صممت على أن أخدمها دون أن أكترث لمواطنى. وشعر لدفيج بلسعة فى قلبه ولكنه لم يظهر ألمه. وعادت أوجستا من «مشوارها» مبتهجة فرحة، فاستقبلتها الأم بوابل من الأسئلة. وألقت الأم العائدة نظرة عجلى على سرير ولدها وهي تخلع قفازها ثم أخذ بصرها بلدفيج فتنبهت ثم عضت على شفتها كمن يتذكر شيئاً بعد أوانه ثم قالت له:

— إننى لن أنسى جميلك ما حييت. لا تحسب يا صديقى إننى غافلة عن فضلك. فان ولدى يعود إلى الحياة بمحض مجهودك ومجهود صديقك الطبيب الالمى بارتولوسكى. ونهض لدفيج يودعها حتى موعد العشاء فصحبته إلى الردهة وضغطت على يده وهى تصافحه. وفى تلك الليلة استبقته بعد الساعة التاسعة وهي موعد انصرافه فى كل ليلة. فقال لها: إن البيت الذي يؤوى بنى تقفل أبوابه فى الساعة العاشرة فلا يمكننى أن أتأخر. فضحكت وقالت له: إنى أعلم مقرك ومسكنك فلا حاجة بك إلى الاخفاء

وللمرة الأولى خلعت ثوبها الأسود ولبست ثوباً أزرق وجلست فى الشرفة على مقعد طويل وقالت له:

آن الأوان لأفضى إليك بسرى. لقد عرفت رجلاً فى وطنى فأغوانى وتخلى عني؛ وكانت الضربة قاسية فلم أبحث عنه بل عدت إلى أمي التى كانت تعيش فى عزلة فى مدينة كييف تزرع أرضها وتدير مطحنها وتتقاضى أجور منازلها التى تركها والدى فوقفت على قدميها، وشرحت لها حالى وسألتها الرحمة والحنان ففغرت لى وبكت. وبعد شهور ممدودة وضعت غلاماً؛ وإذ بلغ عاماً بدأ ينطق ويمشى، وكنت يوماً فى حديقة كاترينا حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن الأطفال يسرحون على الخمائل، ولم تكد تمضى ساعة حتى اعترتنى رعدة فقد لمحت رجلا يمشى وقد تأبط ذراع امرأة، وكان هو بعينه الذى أغوانى وتخلى عنى بعد أن أحسست بالجنين يتحرك فى أحشائى

فازداد اضطرابي وارتميت على مقعد قريب منى وانتبهت فى نفسى ذكريات الماضى. فماذا أصنع؟ لبثت جاثمة فى مكانى حتى غاب عن نظرى. لم أتعود

أن أمثل دور المهجورة ، وإن مثلته فلن أتقنه مهما حاولت . وعدت إلى عزلتى محطمة حزينة تحز فى نفسى الآلام وتحرقها شتى العواطف . ولم أعد أطيق على البقاء صبراً فتوسلت إلى أبى أن تصحبنى . وإذ كنا نستعد للسفر مرض الطفل ، فأخذنا ننتقل به من مكان إلى مكان، فسحنا فى بولونيا وفنلندا والنمسا وإيطاليا حتى استقر بنا المقام فى لوزان كما ترى . وها أنت ذا قد أسفرت عن شهم كريم وملك حارس ولا أملك أن أكافئك على إخلاصك لى ولهذا الطفل البرىء وهو ثمرة غرورى وغرامى — إلا بالاخلاص والوفاء. وها أنا ذى بين يديك أبادلك حبا بحب ووفاء بوفاء ، وأعاهدك على الصدق والصراحة وستجدنى إن شئت صديقة لا تمل ولا تخون ...

فدهش لدفيج وكاد يذعر من هذا السيل من الكلام العذب فابتسم . ونظر إلى الكواكب الحالمة والبحيرة الهامسة بصوت أمواجها ، ثم إلى أضواء المدينة — بحيرة ليمان وجبال الألب وأنوار لوزان — ما أجملها ! ثم نظر فى عينى أوجستا فاذا الاخلاص يشع منهما فأيقن أن الأقدار قادمة على جزائه خيراً باهداء هذه المحبوبة إليه . وهى التى اشتهاها منذ أربع سنين وفارقته على غير صورة، وقد عادت إليه عذراء مفتونة ، وأمّا منكوبة ، وعشيقة مهجورة . فما عليه إلا أن يطأطئ رأسه ويمد يده ليقطف تلك الثمرة الدانية الحزينة . ولكن ماذا يقول بعد هذا الاعتراف الذى أفرغته فى أذنه حلواً ومراً ؟ أباحت بسرها لتستعطفه أم لتقصيه ؟ أعارفة هى بخلقه إن كان يرضى بها أم يسخط عليها أم وثقت بانسانيته ورجولته فلم تخف عنه سر حياتها ولغز وجودها ووصفت له ما قاست فى سبيل ثمرة غرامها المحرم ؟ ولم يستطع أن يبرم فى أمرها أو ينقض ، فتظاهر بالعطف واللطف وشجعها على المضى فى سجيتها كأنه قد شاقه أن يستمتع بحديثها ويمتعها بحديثه فأتيا بالبديع المستطرف من الملح والسائغ المستحب من النوادر. ورنت ضحكات أوجستا بريئة ناعمة تنبئه بما شملها من سرور واستحوذ عليها من مرح . وظلا كذلك ردحاً من الزمن غير يسير يتطارحان روائع الطرف . وأحس لودفيج بعد نصف الليل بقليل مما يضطرم فى نفسها من ميول وأهواء . فقد أخذت تنظر فى الغرفة وتنصت كأنها تتسمع وقع أقدام أو دقات قلب . ثم تغمض عينيها كالمرأة التى تريد أن تستسلم لعاشق يدل عليها ويقاوم رغبتها الجامحة ، وسألها لدفيج فجأة :

— ألا تزال صبة مغرمة وهائمة كلفة بالرجل الذى أحبها ونقلها من الهوى العذرى إلى الغرام الأنثوى ثم أودعها سر الخليقة فأولدها طفلا لا تزال تعانى حبه وعلاجه ويخفق قلبها بخفقان قلبه؟ فقالت:

— إننى لا أحبه ولم أكن سوى ضحية الزمان والمكان والوجد السريع الغادر ، ولا أحب الآن سواك لأنك أقرب إلى مزاجى وطبعى وأدنى إلى تفهم نفسيتى ومعقوليتى من ذلك الرجل . وكان لدفيج يخالسها النظر من حين إلى حين فتبادله « نظرة المريض إلى عيون العُوَّد » وتحاول وهى تناوله الشاى أو الفطير أو قدح الماء القراح أن يحتك كتفها بكتفه عرضاً أو بنانها بأنامله مصادفة فيشعر بغمرة اللذات وفيض الهناء ، كأن مفاتن العالم ومباهج الحياة قد استحالت جميعاً امرأة فاتنة خمرية اللون سوداء الشعر هى هذه التى يسعد بالجلوس حيالها يتملى من روعة حسنها الضحيان . وما كان

أسهل لديه أن يمد ذراعه ليجذبها إليه ويقبلها ويمتلكها فى مظهر ذلك الجمال الأسمى المتجلى فى السماء والجبال وهدوء الليل ، ولكنه كان جباراً على نفسه قابضاً على زمام طبيعته بيد من حديد ، فكبت وصمت وعادت أوجستا للحديث فقالت : لا أدرى لماذا أشتهى الخمر فى هذه الليلة أنا التى أبغضها من صميم قلبي . ولكن كان بودى أن أشربها معك . فاهتز كيان لدفيج هزة عنيفة ثم قالت : أعترف لك الآن أنك استملتنى بجميلك وحسن صنيعك فقد شارف ولدى على الشفاء بفضل سعيك واجتهاد صديقك النطامى بارتولوسكى ، كما ملكت عواطفى بروعة أحاديثك . ولا أدرى لماذا تذكرتك كثيراً فى الصيف الماضي في روسيا ولا لماذا كان طيفك يمثل أغلب الأحيان أمام عينى . وطالما تمنيت ... فقال لها : ماذا تمنيت ؟ قالت : أن يكون هذا الطفل لى منك لامن سواك ، فانى أحب أن تعيد الطبيعة خلقك فى صغير تحنو عليه ضلوعى وتحتويه أحشائي وأرضعه لبانى . وكانت نفسى فى أشد أوقات الضيق تحدثنى بلقائك . فقال لها : أكنت تنتظرين لقائى إذن يا أوجستا ؟ وكانت تلك هى المرة الأولى التى لفظ فيها اسمها من غير لقب ، فرفعت إليه عينيها الساجيتين بجلال ، ولما التقى النظران أطرقت حياء وضرّج الخفر خديها الناضرين الناعمين بحمرة الورد . ولم يلبثا أن افترقا على أمل اللقاء فى الغد

وما انتصف النهار حتى كانت قدماه تقودانه إلى غرفتها كأن قوة خفية تدفع به إليها وما توشك أن تسمع دقته حتى تهرع إليه لتستقبله . وكانت أمها غائبة عن الدار فى أحد شؤونها المالية . فدخل لدفيج وجلس وأقبلت عليه وهى ترتجف ونظرت إليه بعينين نصف مطبقتين ومحيا وادع كسته العاطفة من سحرها وروعتها وتمتمت : لدفيج ! فحنا عليها وصوتها الرخيم يرن فى مسمعه ، وحبها الكظيم يفور فى أضلعه وهمس بحب : « أوجستا » وهم بتقبيلها فما أن كاد يصل ثغره إلى ثغرها حتى سحب رأسه وتراجع عنها أظمأ ما يكون إلى رشفة من بين ثناياها وحبس القبلة فى فمه ، فردت رأسها المحبوب وأطلقت من صدرها المجهود زفرة لاهية ولم تنبس . فقال لها :

— عندى . لا أستطيع أن أحبك في هذه الغرفة ، إن عينى الصغير « اليوشكا » وشبح والدتك يوقظان الحياء والخفر فى نفسى

فقالت له : أو تظن أن نفسى مجردة منهما حتى يعوقاك ولا يعوقانى . أنا لك أنى شئت . فاتفقا على أن تستأذن أمها في غيبة قصيرة — يوماً وليلة — تقضيهما فى بيت صديقة قديمة فى ديثون على شاطئ البحيرة ، ولكنهما يلجآن إلى بوفريه

فقال لها : لا بد أن والدتك تدرك شيئاً من سرنا عند ما لا تجدني أزورها فى غيبتك . وعندئذ انفجرت أوجستا وقالت له : ألم تكفك الأيام التى قضيناها معاً وتصرمت منها الساعات وقد ذهبت علينا هدراً فيما لا طائل تحته ولا غنية فيه ، وإن الذى حال بين حبها وبينه من إباء وشرف وكرامة لم يكن إلا هراء ولغواً ، وقد أخطأ خطأ فادحاً فى عدم انصياعهما إلى عاطفتها وهواه

فقال لها : أتشغل كل ما تواطأ الناس عليه من قواعد وشرائط للحب ؟ فقالت وقد لمعت عيناها :

— على المرء عند ما يحب أن يرتفع فوق العرف والشرائع وأن يسمو فوق الترهات والأباطيل وأن

يتخلى عن التفكير فى غده ومستقبله وألا يبحث فى أمور السعادة والشقاء والرذيلة والفضيلة والشرف والتهتك أو يضيع أوقاته سدى، وليندفع وراء حبه إن شاء متعة نفسه وراحة قلبه . فنهض لدفيج وقبلها قبلات حارة أودعها كل ما فى فؤاده من حنين وحب وصافحها مودعاً إلى الغد وقد تواعدا على أن يلتقيا فى الصباح فى غرفة الانتظار فى محطة السكة الحديدية ، فيكون قد اتخذ أهبته للسفر . وخرج وهو أسعد رجل فى انتظار ذلك اللقاء المرتقب . وذهب لدفيج إلى غرفته ولكن فيمن كان يفكر وهو يصعد الدرج ليقضى ليلته وخيال من كان ملازمه ؟ وطيف أية حورية كان ذلك الذى راود أجفانه حتى الساعة العاشرة ؟ الجواب على هذه الأسئلة كلها هو « أوجيستا » . فلما أيقن أنه لن تغمض له عين ولن يأخذ الكرى بماقد أجفانه نهض ولبس ثيابه وانحدر فى سكون الليل ليقضى هزيعاً منه فى أحد المقاهى الساهرة حتى يهون عليه انتظار أنفاس الصباح . فسار قدما فى شارع غليوم تيل ثم يون سودرون فاڤنيون بونون فبولفار رسوفيدان فيدراو، وهناك ولج باب تلك الحانة الشهيرة « جراند براسيرى فودواز » التى يؤمها الطلاب والطالبات ليشربوا ويطربوا ويرقصوا إلى مابعد نصف الليل وجلس منفرداً فى إحدى تلك المقاصير المظللة بالخمائل المنعزلة عن أخواتها بشباك خضراء من الأغصان والأفنان كأنها خلوات العابدين فى بطون الوديان أو رؤوس الجبال. ولم يوشك أن يرتشف من قدحه رشفة حتى سمع وراء ظهره وقع أقدام وصوتين يتحدث صاحباها فى مرح مصحوب بالحذر . صوت امرأة وصوت رجل. فاهتز لدفيج وارتجفت يده ثم كاد دمه يجمد فى عروقه. المرأة هى أوجستا والرجل هو دى نافافراتلودي نافا ذلك الأفاق دعى الأدب وصاحب الخان الذى اجتمع لدفيج باوجستا على مائدته لأول مرة . وبعد الدهشة الأولى كذب أذنه لشدة استغرابه واستبعاده واستهجانه ، وود لو يستطيع أن ينظر إليهما بعينه ليرى وجه المرأة التى كانت بين يديه منذ ساعات ممدودة تستعطفه وتغريه وتراوده وتحمسه وتصرفه عن الفضيلة والشريعة والعرف وتهون فى نظره مراقبة الناس ومراعاة الحق والواجب . وما زال يتحرك ويعتدل ويميل حتى صار منهما بحيث يرى ويسمع، وعندما وقع نظره على ثوبها وشعرها وخدها (وكانت له فيه علامة لا تخطئ) كاد يجن ويفقد مشاعره وتحل قيود العقل فى نفسه ، ولكنه ضحك واستطاع أن يحوّل ألمه سروراً وطيشه حلماً وغضبه صبراً وسخطه اتعاظاً فسمعها تقول : سأغيب عنك يومين لا أكثر ! إن لى صديقة قديمة فى ديفون تحب أن تراني ، وقد حاولت أن أدعوها لزيارتى فى لوزان فلم أفلح فسمع الرجل يقول : وكيف تتركين ولدك ووالدتك ؟

أجابت : إن الصغير دخل دائرة النقاهة ولا خطر عليه ؛ أما أمي فترى فى تلك الرحلة بعض راحتى وهنائى . واشد ما وددت أن أكون معك فى سياحتى القصيرة

فقال : إن موسم العمل لا يسمح لى بالتنقل ، ثم إن زوجتى تجن إذا علمت بسفرى لأنها تتهمنى دائماً بمرافقتك . فما هذه الساعات التى نختلسها إلا فرص نادرة . ولولا شوق إليك ما استطعت أن أخاطر بعقلها أو بحياتي

فقالت: لا تفتأ تمتن علىّ بقربك وتشعرنى بعرفان

الجميل الذى لك فى عنق ، بيد أن الأمر بين الرجال والنساء غير ما تفعل . وكانت أشعة ضئيلة تقع على وجه أوجستا فيراها لدفيج كأنها فى غيبوبة عما حولها ، وكانت حركاتها وسكناتها كلها تنم عن استرخاء تستسلم فيه لرفيقها الايطالى المغامر استسلام التابع الضعيف يستمد حياته من متبوعه وقد أصبح خيالاً له وصدى لصوته . وكان لدفيج إذا نظر إليه متأملا خاله تارة أسعد الناس وتارة أشقى من فى الحياة ، فهو سعيد باكتشاف هذه الخيانة الغائرة فى أعماق نفس المرأة التى استسلم لها وسمى بخيبة أمله فى حبه حتى بغضت له الحياة . كان عليه أن يقتل أحدهما أو يقتلهما وينتحر ، وكان عليه — إن أراد الحياة — أن ينتقم دون أن يضحى بكرامته ؛ وهل تستحق هذه الداعر الغادرة المفتونة أن يبذل حياته فى سبيلها ؟ فنهض وسار خطى ممدودة حتى وقف بباب خلوتهما المجاورة لمقصورته وصرخ بأعلى صوته : جارسون . تفضل بمحاسبتى فانى مسافر فى الصباح الباكر ، إن لى صديقاً قديماً فى ديفون يجب أن يرانى وحاولت استدراجه إلى لوزان فلم أفلح وسأغيب عن حانتكم يومين لا أكثر

وساد فى المكان صمت عميق

وجاء النادل مهرولاً ولم يسمع سوى آخر ما فاه به لودفيج . فدفع للخادم ثمن الخمرة المنقذة ونفحه حلوانه بسخاء ولم يجد الجرسون مايقوله سوى قوله « إن هذه الجمة جيدة جداً ياسيدى ، لقد أدخلت السرور على نفسك بسرعة مدهشة » وقد ظنه سكران بفعل الخمر . وخرج لدفيج يترنح فكان من يراه لا يشك فى أنه فريسة منقوع الشعير وحشيشة الدينار . وشيعه الخادم إلى المخرج خشية أن يسقط على الأرض وهو ذلك الشارب السخى .

وبعد فترة حكم فيها السكوت على دى نافا وصاحبته قال لها :

— ليس هذا الصوت غريباً على أذنى .

— وليس كلامه غريباً على سمعى .

— أى نعم رحلة قصيرة إلى ديفون وصديق قديم .

— لعله التقفها من أفواهنا وحسن له السكر أن يعيدها .

— إن لم تخنى ذاكرتى فهو ذلك البولونى . . أتذكرين منذ أربع سنين أنك قلت لى إنه لا يعدو أحد رجلين : إما عبقرى ، وإما أبله . فقلت لك : لا هذا ولا ذاك ، إنه مخلوق عادى كالدرهم الذى ينفق فى الاسواق لا زائف فيرد ، ولا حديث العهد بالسك فيدخر .

فضحكت أوجستا وقالت : صدقت لا يرد ولا يدخر . . جارسون : واحد شوب !

محمد لطفى جمعة

وكلاء في الشرق العربى

لمجلتى (الجامعة) و (الـ ٢٠ قصة)

إدارة مجلتى (الجامعة) و (الـ ٢٠ قصة) فى حاجة إلى وكلاء ومراسلين فى البلاد العربية . وخصوصاً العراق وسوريا ولبنان وفلسطين

والمخابرة بالبريد مع الادارة

شارع نوبار رقم ١ بالقاهرة

عواد كرمون

للشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

جانينا — قف التوقيع فأني لا أستطيع أن أخدعك أكثر من هذا فانى أعرف كبرياء الفنان وأقاسمك إياه كما شاطرتك آلامك فيما مضى ولكن ليس ذلك الذى يسيل عبراتى

فيليبو — وماذا إذن ؟

جانينا — سأسبب لك آلاماً ثقالا ولكنك ستشفق على بلا ريب . وحينما قلت لك أيها الصديق القديم إن الحب تغلغل فى فؤادى وإنى كنت أتمنى النجاح لأحد المتنافسين وإن سعادتك هدمت سعادتى

فيليبو — أواه !

جانينا — يحسن ألا يتملكك الغضب ، إنى كنت أجهل كل شيء لأنك لم تظهر لى شيئاً ، وكنت أظنك كعامل مبتدئ ، وهذا أمر طبيعى ، ثم تمنيت أحسن الأمانى للرجل الذى أحبه ، وإن كنت أعرف هذه الأمور لما ترددت فى قرارى نحوكما وكنت أقنع بهذه الفكرة من أنك أذكى منه وأمهره وما كنت أبكى كاليوم

فيليبو — (مشيراً إلى الباب الذى خرج منه صاندرو) هل تحبين ؟ . . .

جانينا — (بصوت منخفض) نعم ! . . .

فيليبو — صاندرو !

جانينا — أنظر ، فانى أودعك سرى دون تردد . . . وهو الذى كان يغذى فى الأمل فى نجاحه ، ولكني بعد ما سمعته لا أري أن يؤمل فى هذه الجائزة . وما أقسى أن يفقد الانسان الامل ! ولكن حزنى ليس مؤلماً لأن رفيق طفولتى وأخى الذى يجب أن ينال هذه الجائزة باستحقاق وجدارة وكان ذلك فوق طاقتى . . . فعفواً

(ثم تبكى وتعول)

فيليبو — إننى فى الحقيقة أتألم أكثر منك فأرجو منك . . .

جانينا — أواه ! إن هذا سبئ وإنى لظالمة . . . وقد نسيت بؤسك ولم أفكر فى شئونك . ليس لك فى محلنا أيها الدنف النحيل والصديق المسكين غير فنك الذى يعزيك ، فقد انتهى حزنى لأننى كنت حمقاء ، ومن العدل إذن أن يكون نصيبه الحب ونصيبك الفخر ؛ وسيكون ساندرو العزيز زوجى على كل حال ، وإنك فنان عظيم تثير إعجابى ، وإنى أحبك وأريد أن أقسم لك (ثم تأخذ يديه)

ولن أبكي عوض . . . أنظر فانى أبسم . . .

(ثم تصعد الزفرات)

ولكن هذا فوق طاقتى ! (ثم تخرج)

المنظر الثامن

فيليبو (وحده بعد تأمل مؤلم) — قطعت جهيزة قول كل خطيب ! اعترفت بكل شيء وإنها تحب رجلا آخر ، وهكذا حلت مشكلة سعادتى بكلمة واحدة ، نعم رجل آخر ! . . . هذا الشاب العامل . . لِمَ تدهش وتعجب بعد كل هذا ؟ وتتهمها بالظلم والعسف ؟ . . . إن الأمور تجرى بطبيعتها أيها التعس . وفي سنها هذه تحلم الفتيات بحبيب مماثل

لهذا الشاب، وأنت أيها السقط المنكود الذى تضحك السوقة فى طريقه، أما نظرت وجهك قط فى المرآة ؟ ولكننى لم أنظر شيئاً ؟ يالله من والحماقة !

هيا أيها الأحدب واختبئ فى جحر ! إنها تحب صاندرو ! وليكونا سعيدين هانئين ! وأنت، اذهب لشأنك، تألم ومت ! أواه ! أية حسرة تنهش فؤادى ! إننى أشعر بشىء انطفأ منى إلى الأبد . وماذا يفيدنى الآن أن أدخل فى هذه المسابقة والطمع فى الانتصار الوهمى ؟ ماذا تعمل أيها الفارق فى أحلامه والذى لا يريد المجد الا ليظفر منها بالقبول والاعجاب والذي لم ينجح إلا فى إسالة دمعها ؟ ولا حاجة لى فى المنافسة وإن صاندرو ليعد بعدى أمهر الصناع، فليأخذ الجائزة ليكفكف عبراتها (ثم يأخذ كمانه)

وأنت يامن بذلت كل ما فى وسعى لنجاحها أصبحت عديمة الفائدة حتى إننى أحتقرك الآن أنت وآمالى ويجب أن أحطمك (ثم يتوقف)

رباه ! أية فكرة تنهش فؤادى ! وإذا نجح عامل آخر وحاز الجائزة فهل يتزوجها ؟ ان حبها لا يليق بى ! بل هو مضحك ! ... كلا ! فان الاخلاص هو الذى يتقدم بينا أنا أتقهقر ! لأن الكمانين متشابهتان فى الشكل، وإنى أستطيع أن أتنازل عن عملى بأن أغير الظرف لأن صاندرو ليس له روح موسيقية ليتسنى له أن يفرق بين صنعه وصنعي . وحينما يأخذون الآلات لتجربتها هناك سأقول له حذرا من فتح ظروفها وسترسل إلى المحكمين الآن ... إننى لا أريد أن تبكى هذه المسكينة، وأنت يا كمانى ينبغى أن تحطمي لأنك تستطيعين أن تمنعيها من التألم ؟ فلنتشجع ونقدم لها هذه الخدمة العظيمة

(ثم يفتح الظرفين ويضع كمان صاندرو فى الظرف الأحمر ثم يقول وهو يضع كمانه فى الظرف الأسود)

ومع ذلك فان هذه تضحية قاسية فظيعة لم تخطر على بالى ـ أيتها القلوب الانسانية الضعيفة ـ إننى صرفت أياما طوالا أشتغل فيها بيدى، إن روح الفنان المشتعل قد أودع فى هذه الآلة الحنو الأبوى المؤثر . إننى أحبك كثيرا أيتها الآلة العزيزة التى صنعتها، وداعا إلى الأبد . إننى أضعك فى هذا الظرف الضيق الأسود، وأظننى فى حداد وأنا أضعك هذا الوضع كأننى ألحد ابنتى فى رمسها

(ثم يقفل الظرف بسرعة ويقول بصوت مختنق)

قد تم الأمر !

المنظر التاسع

فيليبو — المعلم فيرارى — صاندرو

المعلم فيرارى (وهو داخل)

هيا ياصاندرو ... وفيليبو... قداقتربت الساعة ولم تتهيآ بعد للذهاب

صاندرو (يدخل من اليمين) — قدتم كل شىء ياسيدى !

فيليبو (مشيراً إلى الظرفين) — هاهما جاهزتين

المعلم فيرارى — أتمنى لكما النجاح ياولدىّ، إننى أستاذ فى فنى وهؤلاء المدعون يفرطون فى الأكثار من وضع القلفونيا على كمانهم الرديئة ! وستكون الجائزة لنا — لأنى جلت جولة فى المدينة فرأيت الناس جميعهم فى استعداد لهذا اليوم مرتدين ملابس الأحد يسيرون زرافات ليشاهدوا اجتماع اللجنة، ويرى من بعيد رئيس الكنيسة وهو متربع فى كرسيه الكبير، ينظر من بعيد وهو مبيض من البودره كأنه شجرة تفاح فى ابريل . تجول فى الهواء نفحة شجية، وفى الطريق لا يستنشق الناس ويشمون غير الموسيقى المنبعثة من مزمار «أورتب» ومزهر « أبولون »، وفى جميع مفارق الطرق تسمع أصوات الكمان صادرة من نوافذ غرف الأسطحة .

وجميع الأبراج وتنبعث من مدينة كريمون أصوات مختلطة متتابعة فى الصعود كأنها الاوركستر قبل رفع الستار !

صاندرو — هل ستتبعنى يا فيليبو ؟

فيليبو — كلا يا زميلى ... فانى أينما ذهبت يضحك منى ويهزأ بى ويضطرنى لحمل صنمى مع صنعك ، فتصرف كمنافس مخاص لأنك فى بعض الأحيان تكون بعيداً عن الاخلاص ، وفضلا عن ذلك فان دار المحافظة قريبة جداً

(ثم يتناول يد فيليبو التى مدها إليه)

صاندرو — نعم

فيليبو — شكراً لك !

(ثم يخرج صاندرو حاملا الكمانين فى ظرفيهما)

المنظر العاشر

فيليبو — المعلم فيرارى

فيليبو (على حدة) — أواه ! قد تمت الضحية فلنتشجع ! ... (بصوت عال إلى فيرارى) ألا تذهب لتشاهد صنعه مكللا بالنجاح ؟

المعلم فيرارى — نعم سأذهب ، ولكن صاندرو لم يأخذ الجائزة بعد وإنك لتستطيع أن تنال السلسلة الذهبية ، وهل أنت أقل منه ذكاء ومهارة ؟

فيليبو — كلا ! فانك تعرف جيداً أننى سيئ الحظ

فيرارى — إنك تشك كثيراً فى نفسك وإنك لا تقل عن مهرة صناع الآلات الموسيقية ؛ وإن نلت الجائزة فانى أبر بقسمى معك وأختارك لى صهراً وخلفاً

فيليبو — أيها الأستاذ !

فيرارى — دعنى أتم حديثى فانى أعلم بدقائق الأمور ، وستكون رب بيت عظيم ، واعلم أننى حينما بنيت على عقيلتى كانت سنى ضعف سنك الآن ففتحت هذا المحل ولم أكن فى ذاك الوقت ذا جمال ناضر ولو أنه كان مقبولا ولكن فارقته قليلا تلك النضرة ، وكانت زوجى فى ربيعها العشرين ذات دل ، وهذا بلا شك فيه خطره فافتتن بها كثير من الشبان الأعيان فكانوا يقصرون نزهتهم على هذا المكان . وفى المساء يأتون زرافات ويوقعون شجى الألحان على آلاتهم الوترية . ألا تعجب الآن حينما تعلم لأى حد تنقذ المصادفات شرف رجال فننا وكيف بعت فى النهار لجميع هؤلاء الفتيان ذوى الجمال الباهر كثيراً من القيثارات ، وكنت أستدل من صوت آلاتهم وأنا نائم على ضراب هذه الألحان ، وراقبت زوجتى وحافظت عليها بكل دعة واطمئنان وجمعت ثروتى هذه بلا مشقة ولا عناء

ويل لك ! لقد نسينا المسابقة وتأخرت عن الذهاب فناولنى عصاى لأذهب على عجل

(ثم يخرج من اليمين)

المنظر الحادى عشر

فيليبو — جانينا

فيليبو — إننى لمتشوق لتحقيق كل ذلك (ثم يلمح جانينا داخلة وبيدها كتاب صلوات) ، إنها هى !

جانينا — إننى آتية يا فيليبو من الكنيسة ، ولقد ذهبت وقلبى مثقل بالهموم ... ! ودعوت الله أن يكلله بالنجاح رغماً من جميع الاعتبارات ، وحينما ركعت أمام القديسة سيسيل شعرت بأن الله لا يتقبل طلباً غير عادل . ومهما حصل فقد عاهدت الله يا صديقى أن أستمر معك كما كنت دون أن أغير شيئاً من طباعى ، قالى الملتقى القريب ... !

(ثم تخترق المسرح وتخرج من اليمين)

المنظر الثانى عشر

فيليبو (وحده) — ما أشد حمقه فوا أسفاه ! ولو كنت قوياً جميلاً مثله لأحبتنى حباً جماً ... !

المنظر الثالث عشر

فيليبو — ساندرو

ساندرو (يأتى من الداخل مهرولا بعنف واضطراب) — فيليبو ! فيليبو ... !

فيليبو — ماذا دهاك ! فانى أرى عينيك مغرورقتين بدمعهما ووجهك شاحباً ماذا عراك ؟

ساندرو — لقد اقترفت إثماً فاضحاً ، إننى لمجرم عفواً ... ! عفواً ... ! عفواً ... !

فيليبو — من ؟ أنا ؟ أنا الذى أسامحك أيها الصديق ؟ وماذا جرى ؟

ساندرو — إننى — كما ترى — قد فُتنت بها وسيطرت على نفسى ، وقد أنتصر على مزاحم أمام عينيها ، وإنى لتمس نذل حسود . وحينما حملت كمانك — وهى صفوة صنعك — سولت لى نفسى ويا للعار والفضيحة ، وقد فارقنى صوابى من الغيظ والألم ، فوقفت وأنا أرتعد كاللص ، فى ظل رتاج بزقاق ضيق وبدلت الكمانين

فيليبو — أنت ؟

ساندرو — لقد قدمتهما للمحكمين ، وحينما فتح الخبير الظرفين لم أستطع رؤية ذلك وركنت إلى الفرار . إنتقم منى إذن أمام الاشهاد وافضح عملى ! ولكن كن بى رحيماً ولا تطلعها على فعلتى الشنعاء . وسأكتب لك اعترافاً بالجريمة ثم أذهب لأموت بعيداً لأن الخجل قتال . ولكنى أتوسل إليك ألا تدع وجهى يحمر خجلاً أمامها

(ثم يركع أمامه)

فيليبو — كلا يا ساندرو فلا حاجة لى إلى الانتقام فلقد انتقمت أنت من نفسك

ساندرو — ماذا تقول ؟

فيليبو — هذا الفخر الذى يرجع الفضل فيه إلى صفوة أعمالى هذه قد تنازلت عنه لك ولكنك رددته إلى

ساندرو — وكيف ذلك ؟

فيليبو — هاتان الكمانان اللتان بدلتهما قد كنت بدلتهما أنا بيدى

ساندرو — ماذا أسمع ! فان توبيخ ضميرى يحول دون فهمى ؟ وما الذى اضطرك لهذا العمل ؟

فيليبو — لأنى أعبدها وأنت الذى فضلتَه وإن كان فؤادى يفيض حسرة مؤلمة . ولو كنت أبحث عن الشجار من فعلتك فانها قد محت كل ما عملته لأجلها ...

ساندرو (ينهض) — لقد اقترفت إثماً وأود أن أنال قصاصه ، فتفوَّه بكلمة لأذهب حيث لا أعود . وإن نسيتنى جانينا فسأستسلم لله ... وستجعلها تحبك لأنك الوحيد الجدير بها ... إننى أرحل ... ويجب ألا أتردد (يسمع صخب فى الخارج)

فيليبو — لا تبرح مكانك وأطعنى !

المنظر الرابع عشر

الجميع (يدخل فيرارى ثم يرفع ذراعيه صوب السماء حينما يشاهد فيليبو وقد سار وراءه جماعة العوادين وحاجبان يحمل أحدهما السلسلة الذهبية على وسادة والثانى كمان فيليبو وقد زينت بالأزهار والأشرطة الحريرية — وتظهر جانينا على عتبة الباب الأيمن) — ليحى الفنان الماهر !

المعلم فيرارى (مخاطباً فيليبو) — تعال بين ذراعى فإنى أنادى بك ملكاً للفن وإنى أبر بوعدى أمام الاخوان الزملاء فأنت إذن شريكى وصهرى وقلبى ! وقبل كل شىء أمنحك هذه السلسلة الذهبية ...

(ثم يناوله إياها)

فيليبو (ياخذها ويذهب إلى جانينا ويضعها فى عنقها) — إننى أمنحها جانينا الحسناء لتجعلها أحب الحلى إليها حينما يبنى عليها صديقى ساندرو

جانينا — لافض فوك يا فيليبو البار الطيب صاندرو (بصوت منخفض) — صديقى النبيل ! وأخى العزيز !

المعلم فيرارى — مهلا ! أما تمنيت قط أمانى فرسان مالطه وأنك تستطيع أن تتزوج منها ...

فيليبو — كلا ! يا أستاذى الطيب وإنى أود أن أذهب بعيداً لأحمل مى شهرتك ، ومن الغد سأسيح فى إيطاليا . أنظر فإنى حلمت حلماً ، والذى يتأتى حدوثه لم يحدث ، نعم سأذهب وأنا سعيد جداً إذا كان ذهابى يحدث بعض الأسف وهذا كل ما أتمناه (ثم يجذب نحوه صاندرو وجانينا)

وحينما يعود المحل إلى العمل ويستتب لك الحظ بجانب حبيبتك وتعمل عملك الذى تعودته وإن كان بعض الأوتار ذات الصوت الشاكى ، ينقطع بين أصابعك فاذكر دائماً أننى أشعر فى هذا الوداع الأليم الهائل أن قلبى يتمزق مثل هذه الأوتار الشاكية ! إننى أعرف أنكما لا تستطيعان أن تعملا شيئاً فى هذا الأمر . ولا تنسيا أنى كنت ولا أزال أحبكما حباً خالصاً صادقاً !

المعلم فيرارى — أيها الناكر الجميل ! أتريد أن تخرب بيتى ؟

فيليبو — إننى أترك لك صاندرو

فيرارى — ما هذا الميل الغريب ! أتزرع هنا السعادة والثروة وما إليهما ... وما الذى حفظته لنفسك ؟

فيليبو (وهو يمسك بكمانه) — احفظ هذه (على حدة)

وستعزينى وتكون سلوانى فى همومى وأشجانى !

(تمت) محمد كامل عجاج

الجودة الفائقة و الذوق الجميل
والثمن المعتدل
تلك هى العوامل الثلاثة التى تسير عليها
شركة مصر لنسج الحرير
عند ما تنتج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية
ألحوا فى طلب منتجات
شركة مصر لنسج الحرير
إحدى مؤسسات بنك مصر

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الرابع والأربعون

ولى العهد يزور السفير

تقرر أن يزورنا ولى العهد، وتحدد لذلك موعد بعيد يدل على أن اليوم إنما اختير ليمنه . ذلك بالرغم من تأكيد المترجم أن الأيام كلها سواء عند الانكليز . ولكن أكاذيب الانكليز كانت تظهر لنا شيئاً فشيئاً بشكل واضح . وقبل موعد الزيارة كتبت عنها جميع الصحف ، وقد اهتم أهل المدينة بهذا الخبر كأنهم لم يسمعوا قبل الآن أقل شيء عن الفارسيين . وأرسل السفير الدعوة إلى عدد كبير من الناس كطلبهم

والغريب فى أمر الانكليز أن أحدهم يغضب إذا لم تصله دعوة كان ينتظرها ، وأنه يبنى حقه فى طلب الدعوة على أتفه الأسباب ، كأن يكون له ابن عم فى فارس، أو أن يكون قد رأى السفير فى إحدى الحفلات الخاصة . واحتجت إحدى السيدات بأنه مادام الفارسيون يسمحون بتعدد الزوجات فالواجب أن يكون عدد المدعوات فى الحفلات أكبر من عدد المدعوين

وكانت قد انقضت مدة لم أسمع فيها شيئاً عن أسرة هوج سوى ما يأتى به السفير بين حين وحين من السخرية بى والاستهزاء بتعمد ذكرهم وبحادثتى فى أمر الزواج

وقبل الدعوة بيوم واحد جاءت زوجة المسترهوج وبنتها بيسى إلى دار السفارة لتقابلنى، وخاطبتنى كالعادة كأنه لم يحدث شيء . وكانت تخاطبنى بلقب الأمير وعاتبتنى على عدم الزيارة، ثم تبين أن المطلوب هو إرسال الدعوة إلى حفلة ولى العهد ، ولكى تضمن الخبيثة بيسى إجابة هذا الطلب ضغطت على أصبعى الخنصر وهى تودعنى عند الانصراف . فعاودنى الأمل فى مهرها وفيها، ووعدتها بأن أحصل على دعوة من السفير وإن كنت أثق بأن السفير سيسخر بى عند ما أطلب هذه الدعوة

بيد أنه لم يفعل ذلك ، بل وقع الدعوة إليها بغير تردد فأرسلتها إليها . لكنه فى تلك اللحظة جاء عشرات من الناس يطلبون إلىّ التوسط فى إرسال دعوة إليهم ، فاعتذرت بأن التذاكر وزعت كلها

وأخيراً جاء يوم الزيارة ، فدهشت من البساطة التى يعامل بها ولى العهد فى هذه البلاد ، لأن ولى العهد عندنا إن زار منزلاً من المنازل فرشت له الطريق بالأبسطة ، وممرات المنزل بالوسائد الحريرية المغطاة بالورود ، ويعطى عند دخوله من الباب مائة جنيه وتوقد له الشموع ويستعد الطباخون قبل يوم الوليمة بأسبوع على الأقل فى تهيئة الحلوى وغيرها . أما هنا فلا يكاد يعمل أى شيء قبل ساعة الزيارة

ولما تشاورنا فيما بيننا فيما نكرم به الأمير فى أثناء الزيارة قال لى تقى الدين : إن خدم السفارة وموظفيها يجب أن يصطفوا عند الباب ويسجدوا أمام الأمير

فعارض محمد بك أشد المعارضة فى هذا الاقتراح وأكد أنه ما ينبغى للمسلم أن يسجد لنصرانى

واقترح سعيد ومحبوب أن تغنى الشركسية وترقص على الطمبور كما تفعل الجوارى عندنا أمام الشاه ...

فاعترض السفير على ذلك خوفاً من بلوغ الخبر إلى سمع زوجته، واقترح أن يقوم حسن طباخ السفارة أمام ولى العهد ببعض الألعاب الفارسية مثل أكل النار وبلع قطع الزجاج والمسامير ، وأن ينشد محمد بك نحو ألفى بيت من الشاهنامة ، ويقوم تقى الدين ببعض الألعاب البهلوانية . ولكن المترجم قال : إن ولى العهد لا يفهم اللغة الفارسية فلا معنى لإنشاده ألفى البيت ، وإنه بدلاً من باقى الألعاب يحسن أن نأتى بفرقة موسيقية من الانكليز رجالاً ونساء ليكون الأمر ملائماً

وقبل الحفلة وضع حول صورة الشاه إطار من الورد وحول المنزل كله إطار من الأنوار

وبدأ المدعوون يصلون واحداً بعد واحد ونحن فى استقبالهم على الجانبين ، وقد أدهشتنا وفرة الجمال في الصغيرات من الانكليز وكثرة المجاثر منهن . ورأينا بين المقبلين فى عربة ثلاث نساء على رؤوسهن عمائم كبيرة كالتى يلبسها عندنا شيخ الاسلام

ولما دنت العربة عرفتهن ، وهن زوجة المستر هوج وبنتاها ، وقدمن تذكرة الدعوة وعليها بخطى باللغة الانكليزية عنوان كتبته على قدر معرفتى بتلك اللغة وهو (الأم هوج ورأسان من البنات) وقد رأيتهن يبتسمن وهن يقدمنها فأدركت أن كتابته بهذا الشكل غير مألوفة . وقد صافحنى ودخلن ، وما كنت نفسى فلم أذهب معهن ورأيت نظرات الناس إليهن تشف عن دهشة من كبر العمائم، وبعد دخولهن إلى القاعة الكبرى بدقائق دخلت فوجدتهن يقدمن التذكرة إلى الكثيرين والكثيرات ، وكل من اطلع عليها ضحك

وفى وسط هذا الموقف علت الصيحات مؤذنة بقدوم ولى العهد ، فذهب السفير والمترجم لاستقباله

وعند ما دخل سمو الأمير اجتمع الانكليز الذين فى القاعة حوله على شكل دائرة وأحنوا رؤوسهم وكانت هذه هى كل التحية التى حيوا بها ولى عهدهم. وقد تذكرت عند رؤيته عظم الفارق بين ولى العهد عندنا وولى العهد عندهم، فالأول ينظر النظرة المخيفة فترتعد الفرائص ولا يجرؤ أحد على الدنو منه ووراء كلمته العقوبة ووراء إشارته الجلاد . أما الثانى فنظراته فاترة وإشاراته رقيقة، وإن ابتعث فى النفس شعوراً فهو الحب دون الخوف . وقد كان يمشى ببطء وهوادة ويبتسم لكل من يمر به ويصافحه

ولما نظر إلى لابسات العمائم الكبيرة ابتسم وسأل السفير عنهن فقدمت له الأم تلك التذكرة المكتوبة بخطى فسلمها إلى المترجم وقرأها هذا بصوت عال : « الأم هوج ورأسان من البنات » فابتسم جميع من سمعوا إلا الأمير فان تربيته السامية منعته عن تشجيع المبتسمين فى هذا الموقف

وقد احتملت الغصة كأحسن ما يكون فى وسع إنسان أن يحتملها . ولاحظت أن الأم هوج مغتبطة مسرورة بعمامتها وكأنها تقول بعينيها : « من لم ينظرنى إلى الآن فلينظرنى »

أما كريمتاها فقد لاحظت خجلهما وكأن إحداهما تريد أن تخسف بها الأرض

واتفقنا نحن أعضاء السفارة على أن الحفلات

فى بلادنا أروع وأفخم من هذه الحفلات التى لا معنى لها، فقد سادصمت عميق بالرغم من كثرة الموجودين فكاد كل إنسان يشعر بأن الغرفة خالية مع أنه لو كان نصف هذا العدد من الفارسيين مجتمعاً فى مكان واحد لسمعت عن بعد منه ضجة تصم الآذان

ثم أكلنا وانصرف كل المدعوين

وفى الصباح التالى دعانا السفير ليتحدث معنا عن اجتماع الأمس لكى يعرف آراءنا فيه . وقال : «لقد رأيتم ليلة الأمس هؤلاء الانكليز ولست أعرف هل شعوركم نحوهم مثل شعورى ؟ ولكنى أقول لكم إنه كلما مر بى يوم بينهم زاد ميلى إلى اعتياد عاداتهم، فان أخص ما فيهم من الصفات عدم الزهو وعدم الميل للغوضاء . هل رأيتم ولى العهد ؟ إنه «عباس ميرزا» هذه البلاد، وإننى أقسم أنه لم يتسلط إنسان على قلب إنسان كما تسلط هذا الأمير على قلبى، فقد جعلنى عبداً رقيقاً له » فقال محمد بك : « نعم إنه متواضع إلى درجة لا يصدقها أى فارسى »

قال السفير : « هل سمعتم حديثه ؟ لقد قال كلاماً جعل قلبى يخفق من الضحك . ولكنه الفكاهية غريزة لا تنضب . ولقد أحسن الشاه باختيارى ممثلا له فى هذه البلاد، ولولا ذلك لضحك الانكليز من الفارسيين جميعاً . هبوا أنه اختار ذلك التركي الأحمق عسكر خان ، أو ذلك الحيوان فرج الله خان، أو ذلك المجنون عبد القاسم خان، فان الانكليز كانوا يحتقرون الجنس الفارسى أشد احتقار

قلت : « نعم نعم ! ماشاء الله ، هل فى الدنيا ذكاء كذكائك ؟ هل فى الدنيا عقل مثل عقلك ؟ الحمد لله الذى بيض بك وجوهنا فى هذه البلاد فانه لولاك لكانت وجوهنا سوداء »

قال السفير : « صدقت يا حاجى بابا : هل سمعتنى وأنا أمازح الأمير ؟ لقد أضحكته أكثر مما ضحك فى أى يوم آخر » فقلنا جميعاً : « بارك الله فيكم »

قال السفير : « لقد كان فى حاشيته ملك مخلوع وهذا الملك سمين جداً فقلت له : ماشاء الله ! إن المساكين يسمنون فى ضيافتكم . فضحك وضحك الملك المخلوع نفسه واستحسن الجميع هذه النكتة

وكنا نتكلم فقال الأمير إن الخيول الانكليزية جيدة، وإن النساء الانكليزيات جيدات . واستمر يتكلم على هذا المنوال ، فقلت له إن كل شىء فى انكلترا جيد إلا الرجال ، فانهم يسألون أسئلة كثيرة . فضحك الأمير وأعجبته هذه النكتة أيضاً واعترف بأن الانكليز يكثرون من الأسئلة »

فقال محمد بك : « نعم وهم يسألون أسئلة غريبة جداً؛ فمن ذلك أن شاباً انكليزياً سألني هل يحسن الفارسيون ركوب الخيل؟ فقلت له إنه ليس فى العالم من يساميهم فى ذلك . وسألنى هل نحسن المقاتلة ؟ فقلت له: سل عنا التركمان والأكراد، فان أحدنا إذا ركب جواده وأمسك سيفه أمكنه اختطاف الأسد من عرينه. فسألني هل اعتاد الفارسيون أن يتكلموا بالصدق ؟ قلت له : إن كان هذا التعبير هو بعض أساليبه فى وصفنا بالكذب فان ذلك ليس من شأنه. ولما رأى أننى غضبت أكد لى أنه لم يقصد شيئاً، ولكنه قرأ فى كتاب قديم أن الفرس لا يحسنون فنون الحرب ولا ركوب الخيل ولا يستطيعون التكلم بالصدق »

وقال تقى الدين الفراش : « لقد قابلت رجلاً آخر يعرف قليلاً من الفارسية ، وسألنى عن نوع رؤوسنا فظننت فى بادئ الأمر أن هذا نوع من

التحية الانكليزية كما تسأل الانسان عن صحته ، ولكنه أفهمني أنه يسأل حقيقة عن دماغي . ولما أذنت له أخذ يجسه بيده ويرى استدارته وتكوره وقد دهشنا من ذلك ، ولكنه أكد لنا أنه قرأ كتاباً عن أدمغة الفارسيين »

وقال أمين المركبات : إن أحد الانكليز سأله لماذا نحني ذيول الخيل وأقدامها ؟ فضحكت منه وقلت : « ولماذا تقصون أنتم ذيول الخيل ؟ »

وقال محبوب : « إن أحد الانكليز طلب إليّ أن أريه الشركسية وقال : إن قوانين هذه البلاد لا تسمح بسجن السيدات . فقلت له : إذهب وقل للسفير ذلك ، فمض أصبعه وذهب »

وقال محمد بك : « وقد سألني انكليزي آخر : هل نعرف اللغة العبرية ؟ فقلت : إننا لسنا يهوداً وإننا نحتقر اليهود ، وإن الكثيرين منا يعرفون اللغة العربية ، ولكن لا يوجد في بلادنا من يعرف العبرية . على أن هذا اللعين أصر على تعلمنا تلك اللغة وأوصاني باتقانها لقربها من اللغات الشرقية . ثم تحدثنا بعد ذلك عن الموازنة بين اللغة الفارسية وبين اللغة الانكليزية ، فقلت : إن قاموس لغتنا يحمل على ثلاثين جملاً ، فسكت ولم يحر جواباً »

ثم قطع السفير الحديث فجأة وسألني : من هن السيدات اللواتي كن يلبسن عمائم مثل قباب المساجد ؟ فقلت في استحياء : هن من أسرة هوج . فضحك السفير وقال : إذا كان لديهن مال فلا بأس من إتمام الزواج ولكن لا تنس مشروع الشركة التي بيننا

فأردت أن أجد مخرجاً من الجواب على ألا أتورط بالقبول ، ووجدت ذلك في إعلان استيائي من المترجم

الفصل الخامس والأربعون

مضى علينا ثمانية شهور في انكلترا وبدأنا نفكر على صورة جدية في العودة إلى إيران ، وأخذ السفير يشكو من أن المهمة التي جئنا من أجلها لم تتم لأننا لم نعقد معاهدات ولا اتفاقيات على طول ما أقمنا بهذه البلاد ، ووثق من خداع المترجم الذي كان قد أفهمه من قبل أنه سيتوسط في عقد أية اتفاقية ليكون الشاه راضياً عنا . ولما اشتد غيظ السفير عليه استدعاه يوماً وقال له محتدًّا : « يجب أن تفهم وتبلغ وزراء دولتك أن شاهنا عظيم ودولتنا عظيمة . إننا رجال ولنا أموال وعندنا خيول ولكنكم ماطلتموني هنا في المعاهدات والاتفاقيات فبرهنتم على أنكم لا تعرفون الفارسيين . إن إيران تستطيع إذا شاءت أن تبتلع البلاد الأخرى . إنني أريد أن أعود ، ولكنني لا أعود قبل أن أعقد معاهدة وإلا فإن زملائي الوزراء هناك يلومون أنوفهم حين يبصرونني وتميل عمائمهم نحو جانب واحد . فأخبرني يا أخي بكلمة واحدة : هل تريدون عقد معاهدة أم لا ؟ »

فأجابه المترجم ببروده العادي قائلاً : « إن التعامل بين دولتين ليس مثل التعامل بين اثنين من أفراد الناس ، وإن وزير الخارجية الانكليزية ليس متفرغاً للسفارة الفارسية ، بل بينه وبين السفراء والقناصل من جميع بلدان العالم مفاوضات ، وأن السفير الفارسي إذا انتظر قليلاً فانه سيحصل بغير شك على المعاهدة التي يطلبها لأنها ستكون في مصلحة الدولتين »

فأعاد السفير ما قاله ألف مرة من قبل وهو أن الشاه مستبد وأنه يقطع رؤوس الناس إن قضت الضرورة

وقال : « أرجو أن تذهب إلى وزير الخارجية وتقسم له أنى سأموت من الحزن ، وأن دخان هذه المدينة يضايق أنفاسى ويسمم دمى ، فليعجل بعقد المعاهدات حتى أعود . فأكد المترجم أنه سيقول لوزير الخارجية ذلك وسيخبرنا بأشياء كان أهملها من قبل . وهذا هو عذره القديم الذى طالما ردده

قال السفير : « ما هى هذه الأشياء ولماذا لم تقلها من قبل . إنكم قتلتمونى بطول الانتظار وأنا فارسى أعرف الدنيا وما فيها وليس فى وسعك أن تخدعنى بالكلام المعسول »

فقال المترجم : « لقد عرض مشروع المعاهدة على البرلمان الانكليزى وتلقاه بالترحيب ولم يخالفه إلا عضو واحد من أعضاء المعارضة

قلت : « المعارضة ! إن أصحاب المعارضة ثوار على ما أظن ! إنهم كالخوارج عندنا . أليس كذلك ؟ »

فقال المترجم : « ثوار ! لماذا ؟ قد يختلف رأى الانسان عن رأى غيره ولا يكون ثائراً »

قلت : « إننا لانفهم ذلك فى فارس فان الشاه يرفض أن يكون لأى إنسان رأى غير رأى جلالته؛ وإننى أنصح لك أن تشير على ملك الانكليز أن يعامل قبيلة المعارضة كما كان الشاه عباس يعامل الأرمن فيقتل البعض ويشرد البعض إلى أقاصى البلاد

قال السفير : « لقد تكلمت يا حاجى بابا كلاماً حسناً ووافق رأيك رأيى »

وسكت المترجم ولكن كان بادياً عليه أن لديه كلاماً كثيراً ولكنه عن عمد لا يريد أن يتكلم . ثم دعا المترجم السفير إلى زيارة مصرف انكليزى ليرى فريقاً آخر من رعايا شاه الفرنجستان . فوافق السفير ولكنه قال إنه سئم ممن يزورهم ويزورونه . ثم أمر محمد بك بأن يستعد لمرافقته

ويقع القصر الذى زاروه على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة، وله حديقة غناء لا يشك من يراها فى أن هذا القصر كان مملوكا لأمير فارسي زار انكلترا فى وقت من الأوقات لأنه أشبه بمبانى الفارسيين

وقد استقبل السفير عند بابه رجل سمين من الطراز الذى يسمونه فى انكلترا رجال الأعمال

وأدرك محمد بك بفطنته وذكائه من مجرد النظر إلى هذا الرجل أنه يهودى . ولكننى قلت : « يستحيل أن يكون ذلك يا محمد بك لأن المترجم لا يجرؤ على أن يدنس شرف الشاه بأن يقود ممثله إلى منزل رجل يهودى

لكن الرجل اعترف لما سألناه بأنه من هذا الجنس اللعين . وقال محمد بك : « إذن ففى هذه البلاد يهود كما هى الحال فى فارس . ولكن اليهود هنا أغنياء . أنظروا إلى فخامة هذا القصر ! أقسم بذقن الامام على لو كان عندنا يهود بهذه الدرجة من الثروة لكنت أول من يبصق على وجوههم وينهب من أموالهم ما تصل اليد إليه

وقال محمد بك محتداً : « لقد أهاننا المترجم إذ جاء بنا إلى هناوسأحرق قبرأبيه » فسررت جداً من سنوح الفرصة للانتقام من المترجم . وقلت : « لا بد من ذلك ! لا بد من ذلك ! »

ولما عدنا إلى دار السفارة جلسنا فى حلقة وأخذنا نقرأ ورد : « أستغفر الله ! استغفر الله ! » حتى يتوب الله علينا من مقابلة اليهود

لما دخلنا هذا القصر قال لى محمد بك : « يجب أن نعامل هذا اليهودى بمثل ما نعامل به اليهود عندنا »

فقلت : « انتظر حتى نسمع كلامه أولاً »

ولما استقربنا الجلوس كان أول ما قاله اليهودى: « هل أتيتم من فارس بجواهر وأحجار كريمة ؟ » فقلت باللغة الانكليزية : « لا . لم نأت بشيء من ذلك. أظنك تريد أن تسرقنا » فضحك ملء شدقيه واعتبر قولي مزاحاً .

ثم سألنا هل لدينا عملة أجنبية نريد استبدالها بعملة انكليزية ؟ فخشيت أن يصفعه محمد بك . وقلت لأمنعه عن ذلك : « إسمع ياأخى ! إننا لا نعاملك فأنت يهودى ونحن مسلمون »

وفى هذه اللحظة دخل رجل آخر لا يبدو عليه أنه يهودى . وبدأ حديثه كعادة الانكليز بالكلام عن الجو . وسألنا عما إذا كان عندنا مثل هذه البيوت والحدائق ؟ فقلت: إن كان عندنا مثل هذه البيوت فانها لا تكون مملوكة لليهود كما هى الحال فى انكلترا»

قال : « ربما كنتم تكرهون اليهود ؟ » فقلت : « نحن نكره النصارى ونكره الأتراك . ولكن اليهود أقبح من كل هؤلاء » فضحك الرجل: وقال « أنا لست يهودياً ولكنى تاجر »

قلت : « تاجر ! هل التجارة إحدى الأديان فى هذه البلاد ؟ فقال : « كلا ولكنها سكر وبن وفلفل وخردل »

قلت : لمحمد بك : « هذا بدال ! ما شاء الله ! إن المترجم يجمعنا بهذه الأوساط ويدعى أنه عرفنا بأصحاب المصارف » ثم سألته : هل أنت غنى ؟ فقال إن الانكليز يضربون الأمثال بغنى اليهود فيقولون فلان أغنى من يهودى، ولكن بما أنكم تكرهون اليهود فإننا بدالون »

قلت له : « يجب أن تعد نفسك سعيداً لأنك مع يهوديتك موجود فى انكلترا . لأنك لو كنت فى فارس لجعل الشاه مالك ملكا للجميع . وقد كان الشاه عباس يلزم كل يهودى ببناء فندق أو مسجد أو تكية »

قال اليهودى : « نحن هنا ندفع الضرائب فهل تريد أن تقترح فرض ضريبة جديدة علينا ؟ »

وفى هذا الحين كان الغداء قد أعد وحضره خلق كثير، فأكلنا على كره من طعام اليهود؛ والحق أن طعامهم شهى لا يجيد مثله أمهر الطهاة فى تركيا . وكان السفير جالساً بين يهودى ويهودية . وكنت أنا ومحمد بك لا نملك نفسينا من الغضب لهذا السبب وتساءلنا ماذا عسى أن يقوله الشاه لو علم أن سفيره أصيب بهذه اللوثة ونسى أنه سفير ونسى أنه مسلم من أجل أكلة فى بيت رجل يهودى ؟

وقد نسى محمد بك تدينه فصار يغافل السفير ويتناول القطعة بعد القطعة من لحم الخنزير حتى لم يبق على هذا الإمام المجتهد ليصير انكليزياً غير أن يحلق لحيته وشاربيه

ولما عدنا من الوليمة أعربنا للسفير وأعرب السفير لنا عن استيائه واستيائنا من تلك الوليمة. ولم تفتنى الفرصة فأوغرت صدره على المترجم ، فوعد بأن يحرق أباه ، وأخذ يمدح القصر وحديقته وإتقان الطعام وحسن الضيافة ، كل ذلك مع الحرص على لعنة اليهود

الفصل السادس والأربعون

قميص بزور السفير

قضى محمد بك طول الليل فى الاستغفار عن الأوزار التى لحقت به من مؤاكلته اليهود . وفى

صباح اليوم التالى دخل الحمام ليتطهر من أكل لحم الخنزير . وضاعف عدد الصلوات المفروضة ، ولم أحذ حذوه فى ذلك بل استوليت على سمع السفير فلم أزل أستثير غضبه على المترجم لتعريفنا باليهود . وتذاكرنا حوادث هذا الجنس فى بلادنا

وبينما نحن فى هذا الحديث إذ استأذن للزيارة قسيس انكليزى فى كل يد من يديه كتاب . أما أحدهما فهو الانجيل ، وأما الآخر فشىء يقال له كتاب الصلوات

قدمه المترجم الذى لم يزل يقدم لنا أقبح المخلوقات . وقد وجدنا ذلك القسيس أكثر أدباً ووقاراً ممن تعرفنا إليهم إلى الآن . وأحنى رأسه للسفير عدة مرات . وكان المترجم قد طلب إلى السفير أن يستقبله واقفاً فقبل . وبعد تحية قصيرة قدم القسيس الكتابين هدية لسفيرنا فقبلهما . ثم أخذ يتحدث عن الأخلاق بكلام طيب يظهر أنه عندهم مقدمة عادية للتحدث في الدين ، وتكلم عن الله سبحانه كلاماً حسناً جداً كـكلام المسلمين . وقد عامله السفير بمنتهى الاحترام والتأدب ، حتى همس محمد بك فى أذنى بأن السفير سيصبح مسيحياً وأنه لا شىء فى العالم أوضح من ذلك . لأن المترجم استحوذ على عقل السفير ولبه . ولم يدع له شيئاً من حرية الاختيار حتى لقد بلغ من سلطانه عليه أن يجمعه باليهود وبالقسس وبالبدالين

وعلمت الشركسية من سعيد ومحبوب بأن سيدها سيغير دينه ، فانزعجت أيما انزعاج لأنها تعلمت فى أثناء المدة التى قضتها معنا تعاليم الدين الاسلامى . وثبت هذا الدين فى نفسها وصارت تقضى طوال أيامها فى الصلاة والتسبيح . وبلغ من شدة انزعاجها أنها خاطبت السفير فى هذا الشأن فجاءنا هائجاً فى اليوم التالى وقال لنا : « من منكم الذى يتهمنى أيها الأوغاد بأننى غيرت دينى ؟ هل أنت ياحمد بك أيها الرجل المنافق ؟ أم أنت ياحاجى بابا أيها الرجل الفاسق ؟ أيكم الذى اتهمنى هذه التهمة ! تكلموا أيها الناس ! »

قال محمد بك : « اننى أقل الناس فى نظرك وفى نظر نفسى أيضاً . لكن ماذا أقول أيها السيد ؟ انك قبلت الكتاب المقدس عند المسيحيين ، وجلست باحترام أمام القسيس كأنك أمام شيخ الاسلام ففهمت أنك غيرت دينك »

قال السفير : « أهذا جوابك ياطويل اللحية ؟ إن الشاه أرسلك معى لتقول لى ولمن يزورونى كلمات من التحية لا لزوم لها فى هذه البلاد ، ولم يرسلك لتراقب سلوكى . إن الانكليز لا يعرفون التشريفات الفارسية . وليس لوجودك ضرورة بيننا الآن . فإما أن تسلك معنا مسلكاً حسناً وإما أن تعود إلى فارس »

فقال محمد بك : « نعم أعود إن أردت أن أعود فاننى مسلم ولا أطيق أن أراك وأنت مسلم تغير دينك دون أن أتكلم . اسأل عنى حاجى بابا فهو يعرف اننى أهمل كل شىء فى سبيل الاسلام »

قال السفير : « أسأل عنك حاجى بابا ؟ إننى أسأل حاجى بابا أولاً عن نفسه »

ثم التفت إلى وقال : « أخبرنى كيف أصبحت تغار فجأة على الاسلام ومن أين جاءتك هذه الغيرة ؟ أمن الترك أم من الأكراد ؟ لقد عشت خاطئاً ثم تأتى الآن وتزعم أنك شيخ من شيوخ الاسلام ؟ »

فقلت : « يا سعادة السفير إن محمد بك صدق فيما يقول ، وإن أى مسلم لينزعج حين يرى مسلماً

آخر يستقبل قسيساً بمثل الحفاوة التي استقبلته بها . فضلاً عن قبولك ضيافة اليهود . ولقد تناولت الإنجيل كما يتناول أحدنا القرآن »

قال محمد بك وقد تملكه الحماس الديني عند ما سمع جوابي : « الحق يقال يا سعادة السفير؛ فلا تغضب علينا إذا قلنا إنك نصراني »

فغضب السفير وقال : « أبهذه الوقاحة تخاطبني ؟ إنني ممثل الشاه؛ ولو كان الشاه حاضراً لقطع الآن رأسك جزاء هذه الوقاحة . إضربوه ! اضربه يا حاجي بابا !

فلم يعد في وسعنا نحن أعضاء السفارة إلا أن نوسعه ضرباً . وبالرغم من أنني صديقه وشريكه في تهمته فقد كان من واجبي أن أنفذ أمر الرئيس وأشترك في الضرب . وقد كان في فم محمد بك سنان بارزتان شكلهما قبيح كأسنان الحمار ، وكانتا تسببان له لثغة دميمة ، فانتهزت هذه الفرصة ولم أزل أضربه عليهما حتى كسرتهما

وكان محمد بك يصرخ صرخات الغضب ويتوعد بالانتقام فيضطرنا بذلك إلى الزيادة . ثم أمر السفير بالكف عنه فتركناه . وعاتبني بعد ذلك فاعتذرت إليه بأني لم أكن أريد إلا إراحته من هاتين السنين ، وبأن النتيجة كانت حسنة على كل حال لانتهاء النزاع بينه وبين السفير . فقال محمد بك إنه يحمد الله على كسر سنيه لأن ذلك فسّر منامه الذي كان يتوجس منه على صورة مرضية . وذلك لأنه كان رأى في الحلم أن سنين له وقعتا . وظن أن تفسير المنام هو موت اثنين من أقاربه . أما وقد جاء تفسيره على كسر سنين حقيقيتين فإنه أصبح الآن مطمئناً على أقاربه

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهي : الحاج شلبي . الاطلال
أبو علي عامل أرتست . الشيخ عفا الله
الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء
القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعونه الصغير وقصص أخرى »

يظهر في نهاية العام

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

ص
٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)
١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)
١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة
وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

ثم تكلمنا عن السبب فيما تقدم فاتفق رأينا على أن المعيشة فى هذه البلاد أصل المصائب كلها . وعلى أنه لا يستطيع مسلم فى بلاد النصارى أن يتجنب مؤاكلة اليهود ومقابلة القسس

ثم صالحه السفير . ولما عدنا إلى الحديث عن بلادنا وحنيننا إلى العودة إليها قال السفير : « إن زوجتى أصبحت الآن عجوزاً لطول غيبتى عنها ، وإن شاء الله متى عدت إلى فارس استبدلت بها غيرها من صغيرات السن »

فقلت : « فى اعتقادى ياسعادة السفير أن معاشرة السيدات المتقدمات فى العمر خير من معاشرة الطائشات . ويظهر أن لكل عمر حالات خاصة وأن الإنسان لا يستريح إلى من لم تكن مقاربة له فى العمر . ويظهر لذلك أن الانكليز محقون فى آرائهم فى الزواج »

قال السفير : « ما هذه الفلسفة يا حاجى بابا ؟ إن العادات التى تصلح فى بلادنا لا تصلح فى بلادهم ؛ فهم قوم يخالفوننا فى كل شىء حتى فى مظهر الشمس » فوافقته على ذلك وآمنت بأن زواج الكهل من الفتاة الصغيرة غير جائز هنا ولكنه جائز فى فارس

الفصل السابع والأربعون

الاستحمام فى البركة

كنا جالسين مع السفير فى يوم من الأيام بدار السفارة فجاءنا المترجم ساخطاً متبرماً ينبئنا بحدوث مصاعب جديدة بين الانكليز وبين الفارسيين . ففزع السفير وقال المترجم : « بحق علىّ عليه السلام إلا أخبرتنى بالذى حدث . هل وصل إليكم خبر من إيران . هل مات الشاه ؟ »

فقال : « لم يحدث شىء فى فارس وإنما أحدث الفارسيون ضجة فى شوارع لوندرا »

قال السفير : « الحمد لله لقد كنت أظن نكبة حدثت من شر النكبات »

فقال المترجم : « نعم لقد حدث شىء وهو يتعلق بكم » فتململ السفير وألقى عليه ألف سؤال فى آن واحد

قال المترجم : « إن الذى حدث كاد يؤدى إلى أمور شديدة الخطر ولكنه الآن قد وقف عند حد ، وليس من المنتظر أن تترتب عليه نتيجة . أما الأمر فان بعض موظفى السفارة ذهبوا إلى حديقة عامة فى بيكاديللي ، وهذه الحديقة يؤمها خلق كثير للتنزه فى كل يوم ، وفى وسط هذه الحديقة بركة صناعية ، فما كان من أصحابنا الفارسيين إلا أن خلعوا ثيابهم ، ونزلوا للاستحمام فى هذه البركة . فازدحم الناس حولهم ، ورجمهم البعض بالأحجار . فغضب أحد الفارسيين الواقفين على الشاطىء ، واستل خنجره يريد أن يطعن به أحد الانكليز فأخذوا منه الخنجر ، وتوسط بعض العقلاء فانتهت المسألة بسلام ، ولكن الأمر ما كان يقف عند هذا الحد لو قتل موظفو السفارة أحد الانكليز

اغتاظ السفير عند ما سمع هذه القصة وسألنا عمن فعل ذلك ، فعرف أن اللذين نزلا فى الماء هما سعيد وتقى الدين الفراش . وقد اعترفا بذلك غير معتذرين لاعتقادهما أنهما لم يفعلا ما يلامان عليه

قال تقى الدين : « لقد كنا نسير وكان الجو جميلاً ولم نستحم منذ سافرنا من أزمير والماء ماء الله فنزلنا للاستحمام فيه وليس من حق أحد أن يمنعنا عن ذلك . وإذا كان للانكليز عادات تخالف عاداتنا

فما عليهم إلا أن يعلموا هذه العادات ونحن نحترمها ، ولكنهم بدل أن يفعلوا ذلك رجمونا بالأحجار ونحن عرايا .

وقال سعيد : « إذا كان الاستحمام ذنبا فى هذه البلاد فقد كان عليهم أن يقولوا لنا ذلك لا أن يفعلوا ما فعلوه »

فتغلبت روح الانصاف على السفير وقال متهكماً : « ما شاء الله ! متى أصبحت فيلسوفاً ياسعيد ؟ انك الآن تتكلم مثل كلام لقمان، ولكن من الذى استل خنجره ؟ »

قال سعيد : « هو فريدون حلاق السفارة »

وقال فريدون : « إننى لم أستل خنجرى ولكنى أردت الدفاع عن نفسى وعن إخوانى بالموسى »

قال السفير وقد غلبت عليه النخوة الفارسية: « مرحى لك ! مرحى لك ياحلاق ! لماذا لم يفعل الباقون مثلك ؟ إنك شجاع وإن كنت قد أغضبت الانكليز !

ثم التفت إلى المترجم وقال: « ها أنت ذا تسمع إجاباتهم ياأخى وهى إجابات معقولة . وأنتم تتباهون بالعدل . والعدل لا يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر. فاذا رأيت أن أقطع لك آذانهم فانك لا تعود إلى منزلك إلا وآذانهم فى جيبك . إن كنت تريد معاقبتهم فتكلم وإن كانت حكومتك تريد رقابهم فانى أقطعها قبل أن تقوم من مكانك

فأخذ المترجم يتكلم عن العدل كلاماً فارغاً لم نفهم منه شيئاً، وأخيراً قال إنه لا يريد معاقبة أحد، وإنما يريد ألا يفعلوا شيئاً قبل أن يتبينوا هل هو موافق لعادات البلاد

فابتسم السفير وأعجبه هذا القول وقال ليلزم المترجم الحجة : « ولكنكم تباهون بالحرية فهل تستطيع أن تخبرنى كيف تفهمون تلك الحرية ؟ إن الرجلين من الفقراء ولا يستطيعان دفع الأجور الغالية فى حماماتكم . ورأيا ماء من ماء الله فماذا يمنعهم من الاستحمام ؟ الحق أن الحرية مكفولة فى الشرق وليس عندكم شىء من الحرية »

ويظهر أن الكلام أقنع المترجم فلم يرد عليه بحرف

ولما خرج المترجم رفع السفير يديه إلى السماء وقال « إن وجودى فى هذه البلاد سيقتلنى بلا شك . لقد كانت الساعة التى غادرت فيها بلادى ساعة مشئومة » ثم التفت إلى موظفى السفارة وقال : « إن وجودكم معى يزيد من تنغيص حياتى فإنه لو لم يكن من الفارسيين أحد غيرى فى بلاد الغرنجستان لما وجد الانكليز ما ينتقدوننا عليه . ولكن أحدكم يمشى فى الطرقات وكل همه أن يتزوج من بنات الناس والآخر يستحم فى الحدائق العامة . متى يمن الله علينا بالعودة إلى إيران ؟ إن بلادنا هى البلاد التى نستطيع الحياة فيها، فهناك يطمئن الرجل على أهل بيته، وهناك يتمتع بحرارة الشمس وبوجه الشاه »

فقلنا جميعاً : « نعم نعم يا سعادة السفير أطال الله بقاء الشاه وبقاءكم »

قال السفير : « لو أن هؤلاء الوزراء الانكليز — وأسأل الله أن يحرق قبور آبائهم — ردوا على خطابات الشاه ووزرائه فأعطونا المعاهدات والاتفاقيات التى نطلبها لعدنا جميعاً فى الحال . وإذا كنت يا حاجى بابا تأخذ كل هؤلاء الأوغاد وتعود بهم إلى فارس فإنى أصر بالبقاء هنا مع تابعين فقط »

لم أسترح لهذه الكلمات لأنى لا أريد أن أعود إلى فارس بعد موت رئيس الوزارة الذى كان يحمينى .

ولكننى قلت فى نفسى إذا أصر السفير على عودتى فانى أعود واثقاً من رضى الشاه فهو قد كلفنى قبل مجيئ إلى هذه البلاد بأن أدرس اللغة الانكليزية لأترجم كتبها إلى الفارسية وها أنا ذا قد صرت أستاذاً فيها ومتى عدت إلى فارس ترجمت مؤلفاتها كتاباً كتاباً

الفصل الثامن والأربعون

الشركسية

رأى السفير بعد ذلك أن يسكن وحده ويتركنى أسكن مع سائر أعضاء السفارة ؛ وكان الذى استثار حيرته هو أمر الشركسية فقد كان بعضنا رقيباً على البعض مدة وجودها معنا . وكان السفير مطمئناً من هذه الناحية . وقد كان من الواضح أنه لا يثق بأى واحد منا . ولكن ريبته فى سعيد ومحبوب كانت أقل من ريبته فى سائر أعضاء السفارة . لكن الشركسية نفسها ما كانت تدعو إلى الريبة لأنها برهنت مدة وجودها معنا على أنها مسلمة، حريصة فلم تخرج قط من المنزل ولم تفتح قط نافذة الغرفة التى هى فيها ولم تترك فرصاً ولا سنة

حدث في يوم من الأيام أن جاء السفير مهتاجاً محتداً فسبّ ولعن سعيداً ومحبوباً لأنه سمع من أحد الانكليز أنه رأى الشركسية بالقرب من النافذة ورأى معها هذين الرقيقين

ناداها السفير ساعة دخل السفارة وقال : أين كنتما أيها الوغدان ؟

— « كنا نائمين »

— « وأين دلفريب ؟ »

— « نائمة أيضاً »

— « ألم تكونا معها بالنهار بالقرب من النافذة ؟ »

فارتبكا . وقال سعيد : « لقد كانت مريضة وأغمى عليها فنقلناها إلى مقربة من النافذة لتستنشق الهواء .

قال السفير : « أقسم برأس الشاه أنكما كاذبان . إن جارنا الانكليزى أخبرنى أنه رأى نافذة الدار مفتوحة على غير العادة . ورآها معكما . والانكليز فى مثل هذا الشأن لا يكذبون

فنظر كل من الرقيقين إلى الآخر ولزما الصمت . ثم قال محبوب : « لقد كانت مريضة طول اليوم وكانت تبكى وتشكو الصداع ولم نفتح النافذة إلا عند ما أغمى عليها »

فصاح السفير : « ومن الذى أذن لك بفتح النافذة أيها المجنون ؟ »

قال سعيد : « لا ضرر فيما فعلناه فإنما فتحنا النافذة لكى تشق . فقال السفير : « لقد كان موتها أفضل من هذه الفضيحة »

ثم طردهما وظل طول اليوم مهتاجاً . وفى اليوم التالى عدنا إلى الكلام عن عودتنا إلى طهران . واستقر رأى السفير على أن يعيدنا ويبقى هو حتى يتم عقد المعاهدات والاتفاقيات . فربطنا أمتعتنا وهيأنا أمورنا ، وكان أهم شىء فى نظرنا هو وفاء الديون التى علينا

ولما أعلن أننا سنعود هرع عشرات من الرجال

والنساء إلى دار السفارة فى يد كل منهم قطعة من الورق يقال لها قائمة . وطلبوا إلى السفير دفع المبالغ المرقومة على هذا الورق . فانزعج السفير وسب ولعن

ولو كنا فى فارس لكان الأمر هيناً لأنه يسهل التخلص هناك من الدائنين بطردهم أو بعدهم وضربهم على أرجلهم حتى يتوبوا عن المطالبة . أما هنا فمن الذى يستطيع أن يضرب بائع الدقيق وبائع الزيت وبائع التبغ ؟ إن أمثال هؤلاء يعدون فى بلادنا من حثالة الناس ولكنهم هنا من الوجهاء ، وربما أدى ضرب أحدهم إلى إعلان حرب أو نشوب ثورة ، وهم لا يقبلون المجادلة فى الأسعار التى يكتبونها كأن كلامهم منزل من عند الله فاستجرنا منهم بالمترجم ، وقد وجدناه مثلهم ضيق العقل فيما يتعلق بأمر المساومة

ومن المصائب التى ابتلينا بها رجل كان السفير كلفه بتصوير صورة زيتية لا يتكلف زيتها والفرشاة التى اشتغل بها بضعة قروش ولكنه طلب أكثر من مائة جنيه ، ولست أدرى بماذا يستحل هذا المبلغ الكبير

لكن الانكليز متى تكلموا فى أمر الأجور تكلموا بغير عقل ، ولقد قال السفير للمصور لكى يقنعه : إن دهن حوائط منزل كبير بالزيت لا يتكلف من المال نصف ما يطلبه لصنع صورته الصغيرة الزيتية . فأبى المصور أن يقتنع أو أن يفهم

سندباد عصرى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الإنسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الفصل التاسع والاربعون

فريدون الخؤون

كان فى جملة القوائم التى قدمت لنا قائمة عددنا تقديمها إلينا نكبة أحدثها سوء الطالع فكانت عقوبة على خروجنا من أزمير فى ساعة غير ميمونة

بينما الأمير يستقبل الدائنين ذوى القوائم إذ جاءنا رجل معه امرأة يظهر على وجهها الاجرام ورجل ثالث يرتدى ثوباً أسود اللون فى نهاية القذارة . وكان الرجل الأخير هو الذى يتكلم . وقد أطلق على نفسه اسم وكيل أشغال وقال على لسان الرجل الذى استدعاه: إن له بنتاً هي التى جاءت معهما ، وإن فريدون حلاق السفارة أغواها ووعدها بالزواج ثم تركها . وإنالذلك نطلب ألف جنيه تعويضاً لتخليه عنها.

وقد كان فريدون معتاداً مثل هذه الأمور فى فارس ولكننا ما كنا نتوقع أن تبدر منه بادرة من هذا القبيل فى بلاد القوائم التى لا تقبل المساومة

ولما علمنا هذه الحقيقة عنه عرفنا علة تفوقه علينا فى اللغة الانكليزية ونبوغه فى ضروب المجاملة بها

وكان أبو الفتاة تاجر صابون وهو من عملاء السفارة . وكانت معاملته معنا سببا فى تعرف الحلاق عليه لأنه زعم أنه يريد أن يتعلم عليه صنع الصابون، فقبل الرجل تعليمه ودعاه إلى منزله مراراً من أجل هذا السبب . وكانت هذه الزيارات المنزلية سبباً فى توطيد الصداقة مع ابنته . وتعلم تاجر الصابون من حلاقنا صبغ الشعر على الطريقة الفارسية المتقنة كما تعلم منه أموراً أخرى مما يعيد للشيخ قوة الشباب وكانت نتيجة اتصاله به توثيق عرى الحب بابنة التاجر

وقد أخذ صاحب الثوب الأسود القذر يتكلم مع السفير بطلاقة محاولاً التأثير عليه ليدفع التعويض عن الحلاق، بحسماً من أمر جريمة الاغراء والتخلى عن الزواج . فقال السفير : « أقسم أن هذا المطالب أسمج من أى رجل رأيته فى هذه البلاد» ثم نادى الحلاق ولعن أباه وسأله عن وعده بالزواج فاعترف أنه تزوج من الفتاة زواج المتعة لمدة شهرين وفق الاتفاق بينهما وأنه لم يعدها بالزواج الدائم ولم يخدعها ، وقال إن زواج المتعة شائع فى فارس وإن الفتاة فهمت ما يريده قبل أن يعاشرها معاشرة الأزواج وأقسم على ذلك أغلظ الايمان

وعند ذلك أخذ الأب وابنته ووكيل الأشغال يتكلمون فى وقت واحد وأصبحت الضجة عظيمة .

وكان من حسن حظنا أن أقبل المترجم فى هذه اللحظة فأشار بكبرياء إلى وكيل الأشغال بالانصراف. وكانت إشارته بكبرياء كما يفعل العظيم فى فارس عند ما يريد أن يطرد رجلاً حقيراً .

وقد سكت الثلاثة وبهتوا عند رؤية هذا المترجم . وظهر أنهم مهوشون فقط . ولما أمرهم المترجم بالذهاب أو يدعو البوليس ذهبوا صامتين صاغرين .

ووكيل الأشغال عند الانكليز يعادل المأذون عندنا . ولكن عمله ليس قاصراً على التدخل فى الزواج بل هو يتدخل فى كل شىء .

قال السفير : «ألا عدل فى هذه البلاد ؟ أكل من عنده فتاة بائرة يستغنى عن سمعتها فى استطاعته أن يطالب الناس بالتعويض ؟» فقال المترجم ان إخلاف

المواعيد فى أمور الزواج من الأمور الخطيرة فى هذه البلاد فان قوانينا تحمى المرأة »

قال السفير : « ليس فى بلادنا امرأة تبلغ بها الوقاحة أن تطالب رجلاً بالزواج منها على غير رغبته ومتى دخلت المرأة فى بيت الزوج أصبحت له وحده وتظل كذلك حتى يصير فى غنى عنها فيطلقها أو حتى يموت »

فلم يجبه المترجم

ولما تخلصنا من هؤلاء الأشرار جاء الخياط يطلب أجرة تفصيل الثياب . وجاء بائع الأحذية وبائع القمصان، وكل منهم بدون استثناء يحمل قطعة من الورق دوّن فيها حسابه . وقد تدخل السفير بيننا وبينهم وأفهمهم عوائدنا وخفف من حدتهم . وانتهى الأمر إلى أن تنازلوا على كره عن بعض مطالبهم ودفعنا لهم الباقى . وفى النهاية جاء رجل وجيه وطالبنا بمطلب غريب وقال لنا كلاماً أغرب . قال إن خيولنا كانت تأكل من الحشيش فى المراعى القريبة وإنه يريد ثمن الحشيش الذي أكلته من يوم مجيئنا إلى الآن. ونحن ما كنا نعلم أن للحشيش ثمناً في غير هذه البلاد

سأله السفير هل هو مندوب عن الحكومة يطلب ضريبة عن الخيول أم ماذا ؟ وأفهمه أن السفراء معفون من الضرائب . ولكن يظهر أن الرجل مندوب عن هيئة أكبر من الحكومة فقد كان يقول إن « الأوصياء أمروا بهذا » والأوصياء أمروا بذلك » فصاح السفير: « أنا لا أعرف ملكا فى هذه البلاد غير جورج شاه ولم أسمع عن ملوك اسمهم « الأوصياء »

ولكن يظهر أن خوف هذا الرجل الوجيه كان خوفاً شديداً فقد قال لنا إنه سيدفع ثمن الحشيش من جيبه إذا نحن لم ندفعه . ولما استشرنا المترجم أشار بأن ندفع ماطلبه فدفعناه ، وأفهمنا أن الأرض الخلاء ليست مجردة من المالك كما هى الحال فى فارس وأن الملاك لها هم الذين يسميهم الأوصياء

الفصل الخمسون

حبيبة حاجى بابا تتزوج

أعدت سفينة لتحملنا من لوندره إلى الآستانة وجمعنا ثيابنا وتهيأنا للرحيل ، وعزمت قبل الذهاب على أن أزود عينى بنظرة من حبيبتى بيسى وتتسامح على ما عسى أن يكون فى نفس كل منا من جهة الآخر .

وأهدى إلينا شاه الانكليز بمناسبة سفرنا هدايا ثمينة . واشتريت ثياباً جديدة فصرت جديراً بأن يكتب لقب ميرزا بعد اسمى بدل كتابته قبله فسرنى أن أزور بيت المستر هوج بهذه الثياب

فلما وصلت إلى المنزل وجدت عربات كثيرة واقفة أمام الباب . وهذا منظر لم أعهده فى بلاد الانكليز فسألت البواب عنه فقال إن اليوم يوم زواج الآنسة بيسى

عند ذلك أحسست بأن الدم يتصاعد إلى وجهى وخفق قلبى خفوقاً عالياً ، وكنت على وشك المودة فى الحال. ولكن امرأة أطلت من النافذة وصاحت: « هذا هو الأمير! » ثم رأيت من يخرج من الباب على عجل فيدعونى . فدخلت غرفة فيها جمع كبير فى

أحسن الثياب والحلى ، ولكن الحزن مرتسم على وجوههم . وكانت بيسى جالسة بين أختيها وحولهن الفتيات . وكلهن فى ثياب بيضاء . ولكن عيني العروس كانتا تدمعان وكانت الكآبة متجلية عليها بأوضح الأشكال

وكان على رأس بيسى قطعة من الشريط يتدلى منها ما يسميه الانكليز نقاباً وما هو بنقاب لأنه لا يستر شيئاً من الوجه كما أن ثيابهم لا تستر شيئاً من أجزاء الجسم

وقد دهشت من مظاهر حزنها وكيف يتفق أن يكون الحزن من علامات الفرح . ثم أخبرتنى الأم همساً بتاريخ هذه الزيجة وقالت إن بيسي تحسن الغناء وإنها ستكون صالحة وإنها ستكون غنية

قلت : « ولكن لماذا تبكى ؟ » فقالت : « إن ذلك من السخافات التى اعتادتها الفتيات إظهاراً لتأثرها من مفارقتنا لأنهـا بالطبع لا تستطيع أن تجمع بيننا وبين زوجها

قلت : « وأين هو هذا الزوج ؟ »

و كنت أتوقع بالطبع أن يكون هو ذلك الرجل ذا المهماز والشارب القصير الذى كان ينافسنى فى الحب ، فقالت لى الأم إن العادة جرت فى هذه البلاد أن يتقابل العروسان فى الكنيسة . ودعتنى إلى الذهاب لحضور حفلة العرس فى ذلك المعبد . فقبلت لأنى كنت مرغماً على الاقلاع عن كل أمل فى الزواج منها . ورأيت من واجب اللياقة أن أعرب لها عن أملى فى أن تعيش سعيدة وأن يقيها الله من عيون الحساد ويكثر من ثيابها وطعامها ويجعل ساعة زواجها ساعة ميمونة

ولما قلت ذلك وفقاً لعادات بلادنا وضعت فى يدها جنيهاً ذهبياً وقبلتها من بين عينيها ، فانزعج الموجودون وقالت الأم : « ما هذا يا سمو الأمير ؟ ألا ترى يا مستر هوج ؟ »

فأقبل المستر هوج وقال بلهجة بين الجد والسخرية : « أراك يا سمو الأمير عنيفاً فى مطاردة السيدات »

قلت بلهجة جدية : « لماذا ؟ هذه عوائد بلادنا ندفع المال ونُقبِّل . . . »

فجاءت مارى بالقطعة الذهبية من يد أختها وردتها إلىّ قائلة : « إن هذا عمل غير لائق فى هذه المناسبة »

فاحمرت أذناى وقلت بأعلى صوتى : « هـذه عوائد بلادنا ، إن الذهب إشارة إلى السعادة . وفى بلادنا نعطي العروس ذهباً ونقبلها لتكون سعيدة محبوبة . وإن الشاه يفعل ذلك وهى عادة جميلة »

فلما فهموا ذلك أسفوا على إساءتهم فهم الحقيقة واعتذروا إلىّ وشكرونى على حسن نيتى . واحتفظت بيسى بالجنيه وشكرتنى على أن تمنيت لها السعادة

وجاءت ساعة الذهاب إلى الكنيسة وهممنا بالذهاب و كنت أتوقع أن أرى العروس تقبل جدران منزلها وأرضه كما تفعل المرأة الفارسية . ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك . وسألت الأم عن ذلك فابتسمت ولم تجبنى لأن الوقت كان وقت استعجال وحركة . ثم وجدت نفسى فى عربة فخمة بين عربات كثيرة . ومشى بنا الموكب إلى الكنيسة . وقد بحثت فيها سدى عن منافسى ذى المهماز والشارب القصير . ولكننى لم أجده . وطلبت إلى الأم أن تقدمنى للزوج فنادت : « يا مستر فجبي ! يا مستر فجبي . تعال أعرفك بسمو الأمير »

فجاء رجل غليظ الجسم هو البدال اليهودى الذى تغدينا فى منزله . وقالت زوجة المستر هوج اللئيمة : « هذا هو سمو الأمير (حاجى باربار) وهى توهم أنها تقول حاجى بابا . وإنما نطقت الإسم بهذا الشكل لأن كلمة (بار بار) باللغة الانكليزية معناها الحلاق

وقد تظاهرت بأنى لم أفهم مرماها كما لو كنت سمعت اسمى على حقيقته . وقلت فى نفسى إن هؤلاء اللئام يرفضون أن يزوجوا بنتهم من مسلم شاب جميل مثلى ثم يزوجوها من ذلك البدال اليهودى الهرم القبيح الشكل لأجل ماله ! سحقاً لهم وللمال الذى يعبدونه ! إن الانكليز أقبح جنس فى الوجود فهم من أجل المال يتزوجون ومن أجله يحاربون . ومن أجله يعقدون الصلح . ومن أجله يشيدون الأساطيل . ثم أحسست بأن دمى يغلى فى عروقى . ونظرت إلى العروس نظرتى الأخيرة فأدركت علة حزنها وبكائها فإنها كانت تبكى على نفسها لحرمانها منى وعلى بيع أهلها إياها بالمال .

وجاء القسيس فعقد زواجها . ولكننى لم أصغ إليه لأنى كنت مشغول الخاطر . ولم أتنبه إلا عندما قدمت كأس من الخمر إلى بيسى فشربتها واضطربت ومالت فأسندتها أختها مارى . وانزعج كل الموجودين . وثارت ثورة غضبى وحزنى على هذه الضحية فقلت فى نفسى : مالى ولهؤلاء الانكليز والبدالين واليهود وكلهم فى قرارة جهنم

ثم أملت عما متى على جانب واحد وفتلت طرفى شاربى ورفعتهما إلى الأعلى وخرجت من الكنيسة دون أن أصافح أحداً من هؤلاء الكفار

(يتبع) عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧